سيجموند فرويد
وليم شتيكل

الكبت تحليل نفسي

ترجمة
علي السيد

الكتاب: الكبت تحليل نفسي

الكاتب: سيجموند فرويد , وليم شتيكل

ترجمة: علي السيد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الكبت تحليل نفسي/ سيجموند فرويد , وليم شتيكل, ترجمة: علي السيد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٧٧ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١١٨٨٥ / ٢٠٢٠

الكبت تحليل نفسي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

حدثتنا قصص التحليل النفسي بأن جل الأمراض العصبية مردها الجنس؛ فالنزعات الجنسية هي العامل القوي الذي يقف وراء الستار ويثير كيان المريض ويهز قوة الإدراك فيه ويمزق شخصيته. ولا شك أن حلقة المجتمع تضيق بالمرأة أكثر منها في الرجل. فالبيئة والتقاليد والحياء والاجتماع والدين والآداب والعرف – كل هذه الاعتبارات تؤاخذ المرأة وتحملها المسؤولية أكثر مما تؤاخذ الرجل – مما يؤدي بها الأمر إلى الكبت والحرمان، فتدفن المرأة أحزانها في قلبها وتشيع فيها الانفعالات النفسية، ثم يذهب بها الطريق إلى الأمراض العصبية. ولا شك أن الهيستيريا أكثر شيوعا بين النساء منها بين الرجال ومردها الانفعالات الجنسية المكبوتة – فالكبت أشبه بإناء مملوء ماء محكم الغلق وموضوع على النار – فالغليان إذا لم يجد له مخرجا يؤدي إلى الانفجار الشديد. وأن واجب الآباء وواجب الأطباء ورجال الاجتماع العمل على محاربة الأمراض العصبية أو بمعنى آخر تفهم ما يجيش بنفسية المريض من ميول جنسية مكبوتة وترويضه وتقويمه ومساعدته على السلوك في الطريق السليم.

وفي جل الأمراض النفسية ،كثيرا ما تغيب عن عقلية المريض معرفة الأسباب التي تؤدي إلى التوتر العصبي أو الحدة النفسية فينسبها إلى أسباب بعيدة كل البعد عن السبب الأصلي.

وقد قامت نظريتان نظرية تقول بأن فتح باب المسألة الجنسية أمام الطفل مشكلة شائكة – فكأنك تفتح عينيه قبل الأوان وكأنك توحي إليه بأشياء ليأتيها بينما هو نفسه خاوي الذهن والفكر عن الموضوع – فمن الخطورة إذاً التحدث إلى طفلك بأسرار الجنس – ومن المصلحة أن تترك الطبيعة تحل محله المشكلة في وقتها المناسب. أما النظرية الأخرى فتنادي بضرورة تذليل المسألة الجنسية إلى عقلية الطفل وتبسيط أمرها إلى ذهنه حتى لا تفاجئه مشاكلها وهو غير مدرك لها. وأصحاب هذه النظرية يحتجون بأن شباب اليوم غير شباب الأمس، وأن أطفال اليوم تتفتح عيونهم قبل الأوان، وأن المدنية الراهنة تحمل معها المشاكل العديدة والأخطار الجسيمة، وأكبر خطر هو المشكلة الجنسية. وأنت إذا أغمضت عينيك عن هذه المشكلة وتركت الأمور تسير بأطفالك كما تريد بهم الظروف فكأنك بذلك تغلط نفسك وتكون أشبه بالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال هربا من الصياد، فالطفل الذي ترتطم به الحياة الجنسية العاصفة ويحمله التيار إلى ناحية شاذة بعيدا عن الشاطئ السليم، هذا الطفل مسكين لأنه وهو في ضلاله يكافح في الظلام دون أن يملك وسيلة واحدة للنجاة من أمراضه معتمدا على نفسه في حل كل مشكلاته مما قد يؤدي به الأمر إلى زيادة اضطرابه وزيادة أوهامه.

وثمة لفتة أخرى على هذا الكتاب – تجد أن لا حياء في العلم – فالبحث العلمي الصحيح يجب أن يكون منزها عن الخطايا وعن التفكير المغرض وعن الشك فيما يكتبه المؤلف ويقدمه إلى قرائه فلكل إنسان الحق في دراسة المسائل الاجتماعية والنفسية وله الحق أيضا في أن يخوض معركة

الكتابة والتعبير، ولكن على شرط أن يكون ذلك بأسلوب علمي راقي. وكما أن الناس لا يلوموك إذا تحدثت إليهم عن تشريح أجهزة الجسم ودراسة الجهاز الهضمي أو الجهاز العصبي أو الجهاز التنفسي أو الجهاز التناسلي أو... أو... أقول كما أن الناس لا يلومونك على طريقة عرضك لموضوعك وبحثك العلمي فيجب ألا يلوموك أيضا إذا اتجهت في بحثك عن الجنس والبحث في الميول والأغراض والشذوذ والانحرافات والمثيرات لأن الهدف هو تبديد الظلام وإلقاء الأنوار الكاشفة على الحقائق العلمية، الهدف هو الوقوف تحت مسقط النور دون خجل، الهدف هو معرفة الحقائق النفسية في شيء من الشجاعة.

ولقد شهدت السنوات الأخيرة الدراسة العلمية المنظمة، فمدرسة فرويد قامت على أساس البحث العلمي وأنشأت فصولا عديدة وجذبت إليها تلاميذ عديدين لهم شخصيات بارزة في العلم والأدب راحوا يؤمنون بنظريات نبيهم "فرويد"، وتتلخص أصول التعليم في هذه المدرسة بأن كل الانفعالات النفسية والأمراض العصبية وسر نجاح الإنسان في الحياة أو سقوطه مرده الجنس إنا لنشعر ونحن أمام مدرسة فرويد بأننا أمام مسألة نريد أن ننبه إليها الأذهان ذلك أن البحث في أصول الجنس القائم على أساس علمي موضوعي سليم يجب أن تنأى عنه الشبهات، فنحن أمام ظلام نريد أن نجليه بالحقيقة.

لقد مرت بالإنسان فترة من الزمن في العصور الوسطى كان البحث في ماهية الكون والبحث في الشمس والقمر والأرض والكواكب من

البحوث التي يعتبر الخوض فيها كفرا وإلحادا، فقد عارضت الكنيسة كبيلر وكوبرنيس وجاليليو، وحتى عهد قريب، أعني إلى مدى قرنين تقريبا كانت الكنيسة تعتبر أن البحث في علم الحيوان أو علم النبات، والبحث في نظريات التلقيح من البحوث الخربة التي تتعارض مع شريعة السماء، ولكن انبلاج النور في كل مكان بدد نظرية الكنيسة، كذلك الشأن الآن يجب أن يقوم على أساس تشجيع البحث العلمي المنظم في كل فروع الحياة ما دام الغرض إضاءة النور وتبديد الظلام وخدمة الإنسانية.

إن هناك أمانة علمية في عنق العلماء يجب أن يقدموها إلى المجتمع فيضعوا أمامه الحقائق العلمية على لونها الطبيعي دون زخرفة؛ فالعالم الذي يدهن أبحاثه بدهون النفاق أو يحبس علمه عن المجتمع شأنه أن يواجه مريضه بمرضه السري طبيب منافق شأنه شأن الجاهل فمهمة الأطباء معالجة أمراضنا، ومهمتهم أيضا التنبيه إلى الخطر حتى تتحاشاه ولا نقدم عليه، فأنا إذا نبهت قومي إلى خطورة القوة التي يتمتع بها عدوي، لا أكون حينذاك مثبطا للهمة أو ناشرا مبادئ الهزيمة وإنما أكون مواطنا من الطراز الأول، لأن الخوف من الخطر يبحث على الاحتراس والتحصن، ولقد قيل "من خاف سلم".

هناك أمانة علمية في عنق البحاثة تهدينا إلى الحقيقة – وأن الذي يتجاهل هذه الأمانة وهذه الحقيقة شأن الذي يتجاهلها البحر المحيط لاتساعه أو شأن الأبله الذي يحاول أن يجففه بقطعة من الإسفنج ثم يمعن في سفاهته فيجلب معه عديدا من الناس ويجلب معه كميات كبيرة من

الإسفنج لينجز مهمته بسرعة. وليس هناك أوسع من محيط البحث الجنسي – على أن البعض يتجاهل هذا المحيط فيرمي كل باحث أو منقب بالسفه والإباحية. ولكنا نرى أن المزيد من الدراسة في أصول علم الحيوان، وأصول علم النفس وأصول علم الاجتماع – نرى مدى ما في هذه العلوم من ارتباط بالجنس مما يؤدي إلى نتيجة يمكن أن نكيف بها العلاقة بين الغريزة الطبيعية وتهذيبها بمطالب المجتمع.

والمشكل أن الجهاز الجنسي ليس كأي جهاز آخر في الجسم يتأثر بالعصارات والغدد والبنية، وإنما هو يتأثر بالنفس فقد يحدث أن يكون لرجل ضعيف مقدرة جنسية عن رجل سليم لأن ذهن هذا الرجل الضعيف الجسد دائب التفكير بالتيارات الجنسية عن الرجل المعافى مثلا، وقد يحدث لامرأة صارخة الحال والأنوثة بأن تصاب بالشذوذ الجنسي بينما نرى امرأة قبيحة المنظر والخلقة مسترجلة في تكوينها الجسدي قريبة الشبه من الرجل – أقول نجدها سليمة من أي عيب من عيوب الشذوذ، والتفسير المنطقي هنا أن الميول الجنسية لا تتبع التكوين الجسدي بل هي تتبع التكوين النفسي، فالميل الجنسي معبر عن النزعات النفسية. ولكي أزيدك إيضاحا أقول بأنه قد يصادفك أناس يبدون أمام المجتمع في أثواب الملائكة عفة وطهرا بينما هم أبالسة الجحيم.

وفي البحوث الجنسية – لا يمكن لك أبدا أن ترسم قانونا للناس فتقسم المجتمع إلى طبقات – طبقة الملائكة وطبقة الأطهار، وطبقة المنحرفين وطبقة المجرمين... الخ – لأن كل إنسان في هذه الحياة يختلف عن

غيره ولا يمكن لك أن تأتي برجلين أبدا متساويين في العلم والذكاء والفهم والقراءة والمعرفة والإدراك... فلا بد أن تجد فارقا، وهذا الفارق يؤدي إلى فارق في الشخصية، مما يؤدي بالتالي إلى فارق في الميول الجنسية.

وثمة لفتة أخرى على المسرح العلمي نجد أن للإنسان حق التعليم والمطالبة بالزيادة والعرفان حتى يمكن له أن أن يعلل الأمور التي أمامه – فإيماني بالله قائم على أساس البحث والتنقيب وهو أقوى منه فيما لو أخذت الأمور قضية مسلمة دون تفكير – فالقراء الذين يطلبون معرفة كل شيء يحدوهم ميل قوي لمعرفة أسرار المشكلة الجنسية – فالأطفال الصغار والفتيات اللائي لم يتزوجن ونساء الأديرة والراهبات والفلاحات الساذجات وفتية المدارس، والمتزوجون والمتزوجات الذين ارتطم بهم الحظ العاثر وأبى أن يسقيهم كأس السعادة وغيرهم الكثيرون الذين يعيشون في غموض – هؤلاء جميعا في حاجة شديدة إلى معرفة أسرار المشكلة الجنسية، وأنت إذا حجبت علاج هذه المشكلة فكأنك تحجب شعاع المصباح بيديك لتلقي بدله الظلال الكثيفة وكأنك تهدف بذلك أن تزيد الأمر عليهم غموضا وتضليلا.

وليست المشكلة الجنسية مشكلة إباحية إنما هي مشكلة اجتماعية، فهي مفتاح الحب والزواج، فإذا عجز الزوج عن تفهم نفسية الميول الجنسية في قلب زوجته، معنى ذلك أن السفينة السعيدة سوف ترتطم وتتحطم، وطالما ارتبط الزوجان برباط الحب وطالما عرف الزوجان ميول كل منهما ظلت السفينة سابحة في سعادة وهناء وأمن الزوجان من الغرق. ولقد

دلت الأبحاث القائمة على الإحصاء الدقيق أن ثلثي المتزوجين في خلاف دائب وشجار مستمر وأن مرد هذا الشجار والخلاف هو انعدام الانسجام الجنسي.

وفي كل مجتمع – وفي كل منطقة من العالم – اعتقد الناس أن الزواج وتشييد بيت الزوجية من المسائل الضرورية في تكوين المجتمع، ولكن هذا البيت – إذا لم يظلله الحب – يكون أشبه بتمثال خرب تصفر فيه الريح وتنقصه الروح. وثمة لفتة اجتماعية أخرى على الشباب العديد الذي بلغ سن الزواج دون أن تساعده ظروفه المالية أو المعنوية على الزواج. هل يمكن لنا أن نتغاضى أمره؟! ونتركه في حيرة جنسية دون أن نبين له وسائل الحياة أمامه؟!. أعني نترك هؤلاء العديدين يتخبطون في أمرهم فيحل كل واحد منهم مشكلته حسب ما يروق له أو يتراءى أمامه؟!.. أم نساعده ونفسر له بعض الغموض الذي اكتنف هذه المشكلة.

إن جل قصص الأدب والغرام تدور أحداثها حول صراع الشباب في سبيل الحب وتتلخص هذه القصص الغرامية في أن أبطالها نمى فيهم الميل الجنسي قبل الأوان – فمثلا أحب "أسيس" "جالتا" وهو في السادسة عشر. وكانت "لثيون" لها ألف عشيق وهي في الرابعة عشر. وكان "نارسيس" في السادسة عشر عندما ترامت نسوة المدينة تحت أقدامه. وكانت "هيلين" في الثانية عشر عندما هجرت أسبرطة إلى باريس جريا وراء عشيقها – وكانت "جولييت" في الثالثة عشر عندما سقط "روميو" في غرامها – وجن "قيس" بليلى وهو في ربيع الحياة فكأن عشاق التاريخ –

مردهم النضوج الجنسي المبكر. وإني أتساءل: ماذا تصنع لو واجهتك اليوم مشكلة جنسية، فيهيم شاب صغير بفتاة؟ هل نتركه يتهادى في جنونه لنتخذ من حياته قصة وأسطورة – أم تروضه وتساعده؟!. وعلى أي أساس يكون ترويضك ومساعدتك؟!. وكيف يمكن لك أن تقدم له من نصيحة إذا صمت على أن يظل الكتاب الجنسي مغلقا لن تقدر على فتحه؟!...

ويسود البعض اعتقاد بأن شباب العشرين يجب أن يترك الميل الجنسي جانبا وألا يجعل له شيئا من تفكيره حتى يحل ميعاد الزواج فيدخل عتبته وهو صافي السريرة والقلب وهذا الاعتقاد سليم، ولكن ماذا تفعل أمام المنحرفين؟؟ هل تعتبرهم خارجين على المجتمع فتشحب أطرافهم بالسوط؟! أم تعتبرهم مرضى في حاجة إلى رعاية وعناية وفي حاجة إلى الاهتمام والترويض.

العقد النفسية

إن كل العقد النفسية – أو بمعنى آخر كل الانحرافات الجنسية التي تظهر في حياة الإنسان مردها الطفولة – ففي هذه الفترة من حياة الإنسان تكون النفس لينة أشبه بالعجينة تتأثر بما يحيط بها من نزعات فإذا كانت عوامل البيئة والنشأة طبيعية نشأ الطفل ونضج كما تنشأ وتنضج الشجرة بين أحضان الطبيعة مستقيمة العود صلبة البنيان نامية مرموقة، أما إذا لابست طفولته ظروف غير عادية انحنى عوده وعجز المستقبل عن تقويم ذلك الاعوجاج.

فالشذوذ الجنسي والتهور العصبي والاضطرابات العاطفية والانحرافات النفسية مردها الطفولة – وأنت إذا رجعت إلى حياة المريض ظهرت لك الفجوة وبرزت الجذوع واضحة في الماضي وفي الطفولة البعيدة المدى – فالطفل الذي نبت بين أم ماجنة استهترت بتقاليد المجتمع، ورأى هو بعينه مدى ما كانت تذهب إليه هذه الأم من مجون واستهتار، هذا الطفل ينتظره مستقبل مملوء بالغيوم لأنه عجز في طفولته أن يرى الفضيلة بمنظارها الحقيقي، وعجز أن يرى رسالة الحياة على حقيقتها؛ فالحياة في نظره هي الصورة المشوشة التي رسمتها له أمه في الصغر فإذا كبر وتزوج وفاجأ زوجته مثلا في موقف من الموقف التي كانت تقفها أمه لا يثور، ولا يتأثر كما تثور وتتأثر بقية الرجال، بل العكس قد يحدوه ميل الطبيعة الأولى التي نبت فيها لأن يطلب من زوجته أن تمثل الروايات التي كانت تمثلها أمه في

الماضي، وقد تنقلب الأوضاع في نفسه فبدلا من أن يصبح رجلا بسيطا مع زوجته يمسي معها رجلا شاذا عنيفا قاسيا، وكأنه بذلك يحاول أن ينتقم من شخصها من الإهانات التي ألحقتها به أمه، ويمسي معها رجلا غيورا شديد الانفعال شديد التأثر شديد المؤاخذة لها حساسا لأبعد حد، وأنت إذا حاولت أن تعرف سبب المعاملة السيئة التي يأتيها الرجال المتزوجون نحو زوجاتهم وجدت السر قابعا في الأم وفي علاقة الرجل مع أمه في الماضي، وفي عهد الطفولة.

والطفل الذي نبت في بيئة عنيفة ورأى والده يقسو على أمه ويعاملها بغلظة سيرسخ في ذهنه أن قسوة الرجال ضرورة تحتمها الحياة الزوجية فينمو، وبه ميل قوي يحدوه للقسوة على زوجته القادمة، فيعاملها بالطريقة التي كان يعامل بها والده أمه، لأن الصورة المرتسمة في ذهنه عن الحياة الزوجية هي صورة القوة والغلظة وقد تنعكس المسألة معه فبدلا من أن يكون هو رسول القسوة حامل الشر يمسي نفسه موضع الإهانة وقد تضطرب معه المسألة فيعجز عن تمييز الخير من الشر فيلجأ إلى تمثيل القسوة تشبها بأبيه، وفي الوقت نفسه يمثل الخنوع أنفة من تصرفات أبيه وتشبها بأمه؛ فتراه قاسيا وضعيفا في وقت واحد شامخا في السماء وذليلا، وبذلك تكون حياته الزوجية مضطربة حائرة بين اللجوء إلى الشدة وبين اللجوء إلى اللين أن مرض "السادزم" أعني مرض القسوة الجنسية والعنف والشدة أو مرض "الماسوشيزم" أعني مرض الخنوع والذلة أو مرض "السادوماسوشيزم" أي مرض النسوة والذلة في وقت واحد..

إن مرد ذلك كله الطفولة والظروف التي لاحقت الطفل وهو في المهد؛ فأنت إذا أردت أن تعرف سبب العلة في مريض فيجب أن تسلط الضوء على تاريخه حتى تظهر الحقائق واضحة تحت مجهر الماضي.

والطفل الذي يدلله والداه ويذهبان معه شوطا بعيدا في سبيل إرضائه، هذا الطفل يتعود أن يأمر فيطاع فإذا اصطدمت طبيعته في المستقبل مع قسوة الحياة انجرح كبرياؤه وأصابه هزال نفسي، وباتت الدنيا أمامه صخرة كؤود لا يمكن له التغلب عليها، وعجز على مصارعة أحداث الزمن.. وتلعب هذه الأمور في نفسه دورها فيمسي شديد الحنين إلى الماضي شديد التطلع إلى الوراء، شديد التعلق بوالديه فهو بالرغم من أن الأيام تكبر به طفلا كبيرا، والطفل الذي ينبت في بيئة مائعة شجعت ألوان الشذوذ الجنسي يضل به طريق المستقبل وينمو منحرفا عن الصواب، وناهيك ما لهذا الشذوذ من أثر على تكوين الشخصية والنضوج والارتقاء.

والطفل في حياته الأولى بدائي أشبه بالحيوان أو الإنسان الأول في الغابة تنتقصه الحنكة والدراية ضعيف التقدير بين عوامل الخير والشر، فالخير في نظره إشباع غرائزه الأولى وإشباع بطنه ونفسه دون تفكير فيما قد يعود عليه من تخمة الطعام وهو لا ينظر إلا إلى لحظته لأن عقله الصغير عجز عن إدراك حقائق الأشياء؛ فتغره الألوان البراقة دون النظر إلى حقائق الأمور وتظهر طبائع البدائية الأولى في أنانيته وحبه لنفسه وحبه لمصلحته ورغبته في الاستحواذ على كل شيء وميله للشر والاعتداء على الغير، وهو يشك في كل ما يقال له، وظنه إثم، فإذا حبذت له أمه مثلا نوعا من

الطعام وألحت عليه في تناوله داخله شك فيما تقول وتمنع في الاستجابة إليها ورفض الأكل ومجه وإذا ابتلعه فقد يتقيؤه.

والطفل مبالغ في حبه وفي وكراهيته يطالب الذين يحيطون به جميعا أن يحبوه وأن يكون موضع عطفهم وخاصة أمه، وهو إذا تغاضى عن حب الناس له فلا يمكن له أن يتغاضى عن حب أمه له، فإذا اعتقد أنها لا تحبه أو أنها أهملت شأنه أصابته هزة نفسية قد تذهب بأعصابه. وهو دائب التفكير في كل ما يثير انتباه أمه حتى يتأكد من خلود هذا الحب، فيزعم المرض ووجع الرأس والمغص حتى يرى بعينيه مدى حنان والديه، وتعطشه لهذا الحب لا ينتهي بانتهاء الطفولة وإنما يمتد حتى الرجولة ويظل بالرغم من مرور السنين، يظل الحنين يعبث بقلبه نحو أمه أو هو إذا افتقد هذا الحب تحطمت نفسه وأصابه هزة عصبية ترج كيانه.. وما حب الرجل لزوجته إلا صورة من حبه لأمه فهو دائب المطالبة لزوجته أن تؤكد له الحب شأنه مع أمه، فكأنه استبدل الأم بالزوجة وكأن مهمة الأم في الحياة إرواء الظمأ الذي يتعطش له قلب الطفل من حب وحنان، وهو إذا افتقد هذا الحب تحطمت نفسه وأصابته رجة عصبية تهز كيانه.

جاءني مرة رجل بصحبته طفله الصغير، وكان الطفل في التاسعة، وقال لي الوالد أنه لا يكاد يمر يوم أو بعض يوم حتى يشكو الولد من ألم في بطنه، ويخشى أن يكون به بعض المرض المستعصي، فلما فحصت الطفل لم أجد به شيئا ولكني نصحت والده بأن يعطيه "شربة" زيت الخروع في كل

مرة يشكو فيها الوجع، فهذا الطفل يتصنع المرض ليستدر عطف والديه، وفي مذاق زيت الخروع المائع ما يجعله يقلع عن هذا التصنع.

الفادح في هذه التمثيليات تشجيع والديهم واستجابتهم سريعا للأوهام ولهم مقدرة على استغلال البكاء والدموع والكحة لاستدرار عطف والديهم كما أن لهم مقدرة على استفزاز آبائهم بوسائلهم المختلفة، وهم كثيرو الملاحظة لما يدور في جوانب البيت، قديرون على التقليد فكأنهم صور كاريكاتيرية لوالديهم.

حدث أن جاءتني إحدى مريضاتي وكانت تشكو من آلام معوية حادة مما منعها عن الطعام، وكان زوجها يحايلها بوسائله العديدة كي تقدم على الطعام، وكانت للمريضة طفلة في الرابعة سرعان ما لحت حالة أمها فراحت تمثل مرض المعدة بإتقان حتى اعتقدت الأم بأن العدوى انتقلت منها إلى الطفلة.

حدث لطفلة في السادسة أن طلقت أمها من زوجها لتتزوج آخر واختارت الطفلة العيشة بصحبة والدتها؛ فعمدت إلى ممالأة الزوج الجديد، ولكنها في الوقت نفسه لم تنس أن تستثير أمها ضدها –كلما سنحت لها الفرصة – فمثلا إذا حدث وذهبتا لانتظاره وطالت غيبته راحت الطفلة – عامدة – تستفز أمها قائلة: "لماذا تنتظرينه يا أمي؟.. وما الداعي لأن يهمل شأننا هكذا؟!... أفلا ترين أنه كان الأولى به أن ينتظرنا هو بدلا من أن يتركنا نحن ننتظره؟!..." وحدث مرة أن كانت الأم تقطع "بصلا"

وأهاجت رائحة البصل عيون الأم، فقالت الطفلة في تهكم "وددت لو أنه قطع بصلا حتى تسيل دموعه ويدرك بنفسه ما تلقيه من تعب وجهد".

هذه صور من حياة الأطفال وهي صور تبين حقيقة نفسياتهم، فإذا كنا نعتقد أن الأطفال ملائكة صغيرة تعيش معنا فنحن خاطئون؛ فالطفل ما هو إلا رجل صغير – أو بمعنى آخر – الرجل صورة مكبرة للطفل الصغير.

جاءني شاب في الأربعين – راح يحدثني عن نفسه – فقال بأنه لا يمكن له أن يذهب إلى النوم قبل أن يأخذ وسادة السرير الذي ينام عليه ويضع طرفها في فمه، ولقد حاول مرات عديدة أن يحرر نفسه من هذه العادة الرذيلة – ولكنه عجز عن ذلك – وقد أظهر التحليل النفسي أن لهذه العادة صلة تمت إلى عهد الطفولة، فقد تعود وهو في الرابعة من عمره أن ينام بين أحضان خادمته التي كانت تشرف على تربيته، فلما كبر انعكست صورة الماضي على حاضره، ولعبت العوامل النفسية دورها فاستبدل بالمربية الوسادة واحتضنها كما كان يحتضن مربيته وهو طفل صغير.

حدث أن جاءتني فتاة في السادسة والعشرين مريضة بداء العادة السرية، ومع علمها بمدى الضرر الذي تتعرض له من جراء هذا الداء إلا أنها عجزت عن الإقلاع عن عادتها وكانت تحتفظ لنفسها بمعطف من الفرو الثمين، ولقد دلتنا الأبحاث في نفسها بأنه يرسب في أعماق هذه المرأة عقد نفسية مردها الطفولة، أما أصل العقدة فتتلخص في أنها كانت

وهي طفلة تعبث مرة في ملابس أمها فرأت معطفا من الفرو راحت ترتديه وتتمايل بنفسها أمام المرآة، فقالت لها الأم مازحة "عندما تكبرين أرجو أن تتزوجي بائع معاطف" ولعبت العوامل النفسية دورها في حياة هذه الطفلة فلما كبرت وجدت نفسها ترنو نحو كل معطف مصنوع من الفرو حتى باتت أسيرة معاطف الفرو.

وهذه قصة سيدة في الأربعين من عمرها متزوجة ولها أولاد على أبواب أن تصبح جدة ولكن بالرغم من ذلك السن الطويل ما يزال يحدوها ميل شديد لأن تلقي بنفسها من حين إلى آخر بين أحضان الماضي فتخلق حول نفسها جوا أشبه بجو الطفولة التي كانت تعيش فيه، فتعمد إلى العرائس والدمى وتجمعها حولها وتظل تلعب بها ساعات طويلة، وقد لاحظ زوجها عنها هذه التصرفات الصبيانية فكان يؤاخذها ولكنها لم تكترث له وظلت على عادتها تلاعب دماها وعرائسها حتى أثارت أعمالها عيون أطفالها وعيون جيرانها فراحوا يتهكمون على غوايتها فتمارسها بشغف بالغ. ولقد دأبت هذه المرأة على مداعبة أولادها بلين وحنان كما تصنع مع الدمى ودأبت على ملاعبة أطفال الجيران أيضا فكانت تقضي كل أوقاتها معهم تشعر بإحساس الطفلة الصغيرة.

هذه الصور مظهر من مظاهر الارتداد لعهد الطفولة.

أما القصة التالية فلفتى في سن الخامسة عشر مريض منذ تسعة أشهر، ومرضه غريب في نوعه ففي مساء كل يوم في تمام الساعة السادسة يحس بوخز عنيف في قدميه وبشبه شلل في ذراعيه مصحوب بوجع شديد

وينتابه اصفرار بالغ واختلاع في عينيه وارتفاع في نبضات القلب وفي الحرارة والحالة الجسمية العامة ويشتد به القلق العصبي فيرقد كالنمر المجهد ويظل يلهث في شدة ويدور في أركان الحجرة، وينطق ببعض كلمات مكتومة ينادي بها على أمه أو أخته، ويطول به الوقت وهو على هذه الحال حتى إذا دقت الثالثة صباحا استغرق في نوم عميق فلا يستفيق منه إلا في الثامنة صباحا، ليتناول بعض الطعام ثم يعود إلى النوم ويظل في نومه حتى الرابعة مساء، ثم تأخذ أعراض الأزمة في الظهور فما تحل السادسة مساء حتى يكون المرض قد أخذ بتلابيبه فكأنه يقضي نهاره نائماً ومساءه ساهراً دون أن يغمض له جفن.

ولما اشتدت به الحال وضعه أهله في أحد المستشفيات، فظل به بضعة أسابيع دون أن يتقدم به العلاج. ثم جاءني بصحبة والديه، وفحصت الفتى ودرست حالته جيداً، ثم لجأت إلى التنويم المغناطيسي حتى غاب عن رشده وأصبح القلق تحت سيطرتي تماما ورحت أستجوبه عن الأزمة. فأجابني بأنها بدأت عنده عقب زواج أخته مباشرة، مما جعلني أربط بين هذا المرض الذي حل به وبين زواج أخته. أما تفاصيل ما حدث بالضبط، فهو أن حفل الزواج بدأ في الصباح وظل إلى ما بعد منتصف الليل.

وفي صباح اليوم التالي انتابت الفتي عاصفة شديدة من البكاء، ولم يعرف كيف يفسر هذا البكاء إلا أنه هبوط نفسي وحزن عميق ناجم عن فراق أخته فقد تعود المعيشة معها ما جعل الفراق عزيزا عليه، ثم انتابته

موجة من الأفكار المغرضة وراح تفكيره الشرير يحوم حول أخته وحاول أن يطرد ذلك التفكير ولكنه عجز، وظل الشيطان يوسوس له في أذنيه، وكان الشاب متدينا فراح يؤاخذ نفسه على هذا التفكير السقيم، وبالتالي راح يكبت كل هذه الأفكار التي تحوم حول أخته مما أدى به إلى الانفجار النفسي وإلى حالة المرض التي يعانيها.

ولجأت إلى التقويم المغناطيسي مرة أخرى لعلاجه، وسلطت شعاعا قويا على عينيه، وسرعان ما ذهب في سبات نوم عميق، وأمرته وهو تحت التأثير المغناطيسي أن يتعود الحياة الطبيعية، وأن يقلع عن هذه الانفعالات التي تحيط به وأن يتعود الذهاب إلى فراشه في الساعة التاسعة وأن ينام نوما هادئا وأن يستيقظ في السادسة، وقد أطاع الفتى ما أمرت به وظل معافى بضعة أيام، ولكنه سرعان ما عاد إلى حالته المرضية مرة أخرى، فكان ينام النهار ويسهر الليل، وبمعنى آخر فقدت أوامري المغناطيسية قيمتها عليه.

هذه القصة مثال ناضج لكثير من الحالات النفسية التي تصيب العصبيين عندما يتمسكون بأهداب فكرة ويجدون من الصعوبة التخلص منها؛ فهذا الفتى شديد التعلق بأخته، شديد التفكير فيها، شديد الإحساس نحوها، ومرضه الذي يعانيه نتيجة للكبت والحرمان، فبين زواج أخته ومرضه ملابسات، فالعروس أعدت حفل الزواج في السادسة مساء وزفت إلى زوجها في الثالثة صباحا، وهذا الوقت هو الذي يضيق التي فيه ذرعا بالحياة وبآلامها وينتابه وجع شديد وألم، وفي الثالثة صباحا يغط في النوم، وهو يعادل الوقت الذي اعتقد فيه أن أخته – ليلة الزواج –

راحت تدلف إلى سريرها. ولم ينجح علاجي المغناطيسي معه، لأن ذهنه خصب خيالات الماضي، شديد التعلق بأخته وبذكراها، شديد التفكير في لحظة زواجها وليلة زفافها.

هذه القصة مثال واضح لما يمازج أمثال هؤلاء العصبيين من تعلق بفكرة الماضي، وهي مثال حي لارتداد الإنسان نحو الطفولة.

الميل الجنسي في الطفل

يعتقد البعض أن الطفل الصغير خال من الميل الجنسي منزه من الخطايا يعيش مع الملائكة وأن حياته الجنسية لا تظهر إلا في سن البلوغ، هذا الاعتقاد خاطئ، وخال من الصحة فالغريزة الجنسية تولد مع الطفولة – شأنها شأن كل غريزة أخرى – ولكي أوضح هذا الكلام أضرب مثلا بالغرائز الأخرى؛ فغريزة الخوف تولد مع الطفل الرضيع فهي موجودة فيه كما هي موجودة في الرجل المسن، اللهم إلا أنها تختلف شأنا في مظهرها؛ فالطفل يخاف من الأشباح ويخاف الظلام ويخاف الوحدة، والرجل يخاف اللصوص ويخاف الطرد من وظيفته ويخاف على ضياع ماله، أعنى أنها موجودة في البشر منذ الولادة وإن اختلفت في مظهرها، وغريزة حب البقاء موجودة في الطفل الرضيع كما هي موجودة في الرجل أيضا فكل منهما يحافظ على حياته ويروم لنفسه النجاة، وغريزة السباحة موجودة في الإوزة الصغيرة فتراها تولد وهي عارفة السباحة شأن الإوزة الكبيرة، وهكذا الحال في كل الغرائز كذلك شأن الغريزة.. إذن فالطفل الرضيع له إحساس جنسي شأن الرجل البالغ، ولكن كل ما يمكن أن يقال هو أن غريزته غير كاملة لأن جهازه التناسلي لم ينضج، ويؤكد هذا القول ما يعمدن إليه الخادمات من العبث بأعضاء الأطفال الرضع، إذا عمد هؤلاء الأطفال إلى البكاء كوسيلة لإسكاتهم فيحس الأطفال بالنشوة ويقلعون عن البكاء.

وناهيك ما لهذه الطريقة من خطورة على أعصاب الأطفال وأثر على صحتهم.

ويتركز الإحساس الجنسي في الطفل في الفم فالرضيع يحس بشعور جنسي وهو يمتص لبن أمه ويتلذذ بثدي أمه ويغار عليه ويبغض كل من يقترب منه، فكان الفم في الطور الأول هو المحور الجنسي، وإذا سحبت أمه ثديها من فمه وضع إصبعه بدلا منه ليحاول أن يستحلب اللذة الهاربة منه وإن كثيراً من الأطفال بلغ بهم السن دون أن يتمكنوا من التخلص من عادة وضع الإصبع في الفم.

ولا شك أن التقبيل في الناضجين لذة رسبت من عهد الطفولة فإذا كبر الطفل انتقلت موضع اللذة من الفم إلى الظهر والمناطق المحيطة بالفخذين، وإن الأمهات اللاتي يطرحن أولادهن ويضربوهن بقسوة، إنما ينمون الإحساس في هذه المنطقة فيمتد الميل الجنسي بالأطفال مما قد يؤدى في المستقبل إلى الشذوذ الجنسي.

فإذا بلغ الطفل الرابعة أو الخامسة انتقلت مناطق الإحساسات الجنسية إلى الطبيعة، وفي تلك السن تبدأ الحياة الجنسية في الظهور ويوجه الطفل إحساسه العاطفي حينذاك إلى أقرب المحيطين به أو بمعنى آخر يوجه إحساسه نحو أمه، فتكون الأم في نظره بمثابة الملهمة لعواطفه المصيرة لإرادته، فهي أمامه وسيلة وغاية وحبه لها حب جنسي بحت يقوم على خيالات خصبة من الميول العاطفية، فهو يبكي إذا غابت عنه ويتألم إذا لم تبادله الحب ويغار عليها إذا اقترب منها أبوه أو أخوه أو أخته لأن الطفل

يرى أن أمه له وحده وملك له دون أن يقاسمه شريك. ولا شك أن التوتر النفسي الذي يصيب الطفل والغيرة التي تنتابه من تصدع آماله نحو أمه له أثر كبير على نفسيته وحياته القادمة.

وفي هذه السن بالذات النمو العقد النفسية؛ فالطفل الذي يرتبط بأمه ارتباطاً وثيقاً يصعب عليه في المستقبل التخلص من هذا الحب وتنمو به السن دون أن يتمكن من التحرر من ارتباط الماضي، فيكون أسير والديه، وناهيك عما في ذلك من أثر على مستقبله. ثم تتقدم به الحياة ويأخذ أهبته في سبيل الدخول في الوضع الطبيعي، فإذا بلغ السن ونضج وصارت معه الأمور عادية استقر به الأمر واتجه إحساسه العاطفي نحو الوضع الطبيعي واختار شريكة حياته مع ما يتناسب مع مزاجه وميوله.

هذا هو الوضع الطبيعي في الإنسان العادي، أما المنحرفون فانحرافهم الجنسي ناجم من فلتة في حياتهم مردها الطفولة وعدم مقدرة المريض على التخلص من الأطوار، أو بمعنى آخر تعلق المريض بعهد الطفولة وتشبثه بالماضي فمثلا الطفل شديد التعلق بأمه يظل حنين الماضي دائما بها، وهو إذا بلغ الهمة وبلغ السن رفض الزواج واختلق الأعذار، ولكنك إذا بحثت في قرارة نفسه وجدت أن السبب الأصلي هو التعلق الشديد بعهد الطفولة والحنين لوالدته والرغبة في استمرار الشعور بأنه طفل، على أن مثل هذا الطفل قد يجد له مخرجا فيتزوج امرأة فيها شبه شديد بأمه، فكأنه استعاض بها عن أمه.

أعرف رجلا فنانا تزوج امرأة كانت تكبره بأربع سنين، وعاش معها فترة تحت ظلال الحب ولكنه لم يلبث طويلا حتى دب بينهما الشقاق فكان يتلمس لها الأخطاء فيعاتبها عتابا شديدا ثم اشتد الشقاق بينهما حتى كان ينهال عليها ضربا، وكان يطعنها في كبريائها فيزعم بأنها تخونه، وبالرغم من تأكيدها له بأنها مخلصة إلا أنه كان يتلذذ دائما في اتهامها بالخيانة حتى يجد فيها عذرا للشجار والخلاف، فكان إذا خرج معها إلى الطريق العام مثلا، ورأى شابا عابر سبيل يمر بهما صدفة وحانت منه التفاتة لها سرعان ما يرميها بالسوء ويزعم لها بأنه يربطها بهذا الشاب علاقة آثمة ولا يلبث أن يجعل من هذا الحادث موضع شجار مستمر.

ولما اكتشف بأنها أكبر منه سنا سرعان ما جعل من معرفته بهذا السر وسيلة لمهاجمتها فراح ينهال عليها ضربا ثم طلقها بحجة خداعها وغدرها، ولكنه لم يطق عنها بعدا فما لبث أن عاد بها ثانية إلى بيته، ولكن ظل الصراع عنيفا دون أن يهدأ له حال، وفي مرة من مرات الغيظ ألقى في وجهها زجاجة أحدثت جرحا كبيرا قضت من جرائه أسابيع وهي تحت العلاج ثم خرجت بعاهة كبيرة شوهت جمالها.

وانتابته عقب ذلك رجة فراح ضميره يؤنبه على سوء تصرفه، وشعر بهول الجريمة التي اقترفها فبات مخلوع النفس مهزوز الوجدان حائرا بين عاطفتين متناقضتين فهو لا يريد الاحتفاظ بها في حضانته لأن أعصابه أصبحت متوترة لا تقبل أي تفكير في صراع جديد، وهو لم يرض أن يسرحها لأن التشويه الذي تركه في وجهها كان له رد فعل على نفسيته

فشعر بهول الجريمة التي اقترفها في حقها ومن ثم وقع فريسة قلق وحيرة واضطراب فجاء يسألني المشورة.

إن هذا الشاب مصاب بعقد نفسية نبتت في الماضي وهذه الانحرافات أو هذا الشذوذ أو هذا الاعوجاج في شخصيته مرده الطفولة، وإذا سلطنا شعاعا من ضوء قوي على نفسيته ظهرت أمامنا مدى الجزوع التي تخالج سريرته، ولقد أظهر لنا التحليل النفسي أن هذا الشاب مصاب بعقدة التعلق بالأم فقد ولد بين أم قاسية وأب ضعيف وكانت شخصيتها جامحة فشب شديد الشغف بها شديد التأثر بها شديد التعلق بها ورسخ في ذهنه منذ الطفولة أن الفتنة تتركز في المرأة القوية، ومن ثم في الكبار سنا، لأن في كبر السن رمز القوة، وقرب التشبيه بينه وبين أمه، فلما عاش معها وجدها ضعيفة الشخصية هزيلة التكوين تنتقص القوة التي كانت تتمتع بها أمه فانتابه شيء من خيبة الأمل ما أثار أعصابه فعمد إلى إيذائها كانتقام منها ومع أنه لم يكن راغبا فيها إلا أن شيئا آخر كان يجذبه إليها فقد كان اسمها على اسم أمه وفي هذا التشابه في الاسم بينها وبين أمه ما قربها إلى ذهنه، ومن هنا كان كثير التردد بين الانصياع لها وبين الأنفة منها . وفي لفتة أخرى على هذه المسرحية نجد أن هذا الشاب شديد الإحساس فهو ينهال عليها ضربا، ثم يطلقها بحجة خداعها وغدرها، ثم لا يلبث أن يسترجعها ثانية، وهذا التردد بين نفسيته نتيجة لما يخالجه من شعور الحيرة والقلق أو بمعنى آخر الصراع بين النفس والضمير. أو بمعنى آخر صراع الرغبة في العودة إلى الماضي والارتداد إلى عهد الطفولة وبين الاستئثار

بشخصيته والاستقلال بنفسه، أعني هذا الصراع أدى إلى الاضطراب النفسي.

وأنتقل إلى قصة أخرى لفتاة حزينة في ربيع الحياة تحس بهبوط وقلق واضطراب، فهي تستيقظ في الصبح مهمومة يسامرها ميل شديد للبكاء والأنين فإذا انتصف النهار وذهبت عنها غمامة الحزن لا تمكث طويلا حتى ترتد إلى الستائر الداكنة نحو الشعور للانقباض، وهي دائبة الشجار مع أمها شديدة الحساسية نحوها، فإذا حدثتها أمها بكلمة جافية سرعان ما تفقد البكاء لا تستفيق منها إلا بعد ساعات، وهي تلقي باللوم الشديد على السماء التي حرمتها من عطف الأب منذ الصغر فلو كان هناك عدل لما اختطفت أبيها مبكرا، ويزداد توتر الحالة النفسية لأن الوقت يمر بها سريعا، وهي تصعد سلم الحياة دون أن يتقدم لها خطيب يأخذ بيدها، وتخشى أن تمر السنين ويفوتها القطار، وبذلك تقضي حياتها عانسا.

هذه الفتاة مصابة بعقد التعلق بالأم؛ فهي تحب أمها حتى العبادة، ومن أجل هذا الحب رفضت الزواج فكانت تخلق الأعذار في كل شاب يتقدم إليها ليطلب يدها، وإن أسعد اللحظات في حياتها هي الأوقات التي تقضيها إلى جوار أمها، ولكن أمها امرأة جافة خشنة الطبع غليظة القلب، ومن ثم عجزت أمها عن أن تجد استجابة لعواطفها، فراحت تعيش في وحدة وعزلة عن الأم، ثم تصرفت على امرأة كبيرة السن فكانت تتردد على زيارتها كبديل لأمها ثم ارتبطت معها برباط من الشذوذ الجنسي، فعاشت سعيدة بصداقتها، ولكنها سرعان ما اكتشفت أن هذه المرأة تخون

الرباط، ومع هذه الخيانة اصطدمت عواطفها مرة أخرى، ومن ثم كرهت هذه المرأة كما كرهت أمها وكما كرهت النساء جميعا.

وثمة سبب آخر له أثر في نفسيتها ذلك أن أمها امرأة يأتي العشاق إلى دارها وعلى مرأى من أولادها، فكانت هذه الفتاة ترى المسرحيات المريضة وترى بعينيها مدى الانحدار الذي وصلت إليه الأم، فكان ينتابها غيظ شديد من جراء هذه المناظر المؤذية، وكانت ترى أن هؤلاء الرجال أشبه بالذئاب فالواجب عليها أن تحمي نفسها وأمها، وكان لها أخت راحت تترسم طريق الأم، وذلك بدا واضحا أن الظلام الذي خيم على الأم وخيم على الأخت ينتظر مستقبل هذه الفتاة، فالغيامة التي أعمت الأم وأعمت الأخت سوف تحط على عينيها فتعميها هي الأخرى، ولقد ارتسمت في ذهن هذه الفتاة الصغيرة، صورة الأم كرمز للشيطان فكرهتها وكرهت معها أختها وكرهت الزوار وكرهت المحيطين بها جميعا، وارتدت هذه الألوان القاتمة من الكراهية البغيضة، ارتدت عليها فكرهت نفسها أيضا وكانت لها ابنة خالة تزوجت حديثا وأنجبت طفلا ولكن والده رفض الاعتراف به فازدادت كراهية الفتاة البيئة المحيطة بها، فكرهت ابنة خالتها أيضا، وكرهت معها ابن السفاح الصغير، ومع أن زوج ابنة خالتها اعترف بالطفل بعد ذلك، وأصبح ابن السفاح طفلا شرعيا إلا أن الفضيحة التي لابست هذا الزواج كللته باللون الداكن ما أصبح مستحيلا على هذه المريضة أن تنزع من ذهنها صورة القبح الذي تعيش فيه هذه العائلة..

وما زاد في سوء هذه القصة الصراع العنيف الذي كان يقوم بين أخت هذه الفتاة وأمها، فقد حدث أن تقدم شاب وسيم الطلعة إلى أخت هذه الفتاة يطلب يدها، فسرعان ما ألقت الأم شباكها حوله وطبعا راح الاثنان يتنازعان هذا الرجل يتخاصمان على حبه ومن ثم أضاعت الأم كل ما تبقى لها من وقار. وكان لهذه المريضة أخ لم تعجبه هذه التصرفات القبيحة فكان يأنف من هذه الصور الداكنة التي تحيط بهذه الدار فتركها وراح يعيش وحده ثم خطب فتاة تعرفت إليها هذه المريضة وكانت تتخذ من صداقتها وسيلة للتعزية، ولكن أخاها سرعان ما تخلى عن خطيبته هذه فتخلت هي الأخرى بدورها عنه ثم بعد أصابتها التيارات العصبية الجامحة وسقطت فريسة الانهيار النفسي.

إننا نلمح هنا مدى الصلة الشديدة بين هذه الفتاة المريضة وبين أخيها، فتقربها من هذه الصديقة كان بمثابة تقرب من أخيها فكان هذه الصديقة كانت بمثابة همزة الوصل بين هذه الفتاة وبين أخيها، وهذا التعلق بالأخ أثر من أثار الماضي وهي في حبها لأخيها إنما تهدف به العودة إلى الطفولة، وهذا العلق نكبة إلى الوراء وارتداد للماضي.

ويرينا التحليل أيضاً أثر الأم في تكون النشء وكيف تخلق الأم الاشمئزاز والكراهية في قلوب الأبناء الأبرياء فنحن أمام فتاة ضحية سوء تصرف أمها وسوء تصرف البيئة المريضة التي ثبتت فيها، هذا التصرف السيئ بعث الكراهية إلى قلب فتاة بريئة حتى باتت تنظر إلى العالم بمنظار أسود، ولا شك أن المسئولية في مرض هذه الفتاة يقع على أمها فهي التي

عجزت منذ الطفولة عن تقويم الفتاة على أساس سليم بسوء تصرفها وشذوذها ومجونها، فقد لعبت الدور الأكبر على مسرح حياتها إما أنها وإما أختها وأما أخوها، فلم يكن لأيهم دور مهم في هذه المسرحية فقد اكتفى كل منهم أن يأخذ دورا من أدوار الكومبارس التي ساعدت على إخراج المسرحية، ولكن دون أن يكون له جانب من البطولة.

هذه القصص صور من العقد المختلفة التي نبتت في عهد الطفولة، وترينا أن النضوج في العصبيين، إنما هو نضوج غير كامل وهو فيه دائما لفتة إلى الوراء وارتداد إلى عهد الطفولة وبمعنى آخر ترينا أثر الطفولة على المستقبل.

القلق النفسي

يثبت القلق في النفس من تصادم رغبتين متعارضتين، فإذا حدث مثلا أن جرح شعورك أحد الناس بكلمات نابية فقد تأخذك القوة وتنهال عليه ضربا، وقد تؤثر السكوت على أنه ينتابك أثر ذلك غيظ وانفعال واضطراب مما يؤدي إلى قلق عصبي، هذا القلق مرده التضاد بين الرغبتين: رغبة الانتقام ورغبة الرضوخ والاستسلام.

وإذا حدث مثلا وكنت تجلس على إحدى المقاهي في الطريق العام، وتصادف أن مرت أمامك فتاة جميلة وألقت عليك نظرة ذات معنى فقد تحدثك نفسك في أن تتبعها في الطريق، على أنه في الوقت نفسه ينتابك شعور آخر فتؤثر البقاء حيث أنت. ومن بين هاتين الرغبتين يحل بك حيرة وتردد وقلق، فالقلق هو نزاع شديد بين رغبتين متناقضتين كل منهما تحاول أن تملي إرادتها. والقلق يخلق التردد، والتردد يخلق العصبية، والعصبية تؤدي إلى الانهيار العام، والانهيار العام يخلق الشك، والشك إذا زاد عن حده يؤدي إلى الحيرة والخوف وعدم الاطمئنان مما يؤدي إلى الهستيريا والأمراض العصبية الأخرى. وسبب القلق والاضطراب في كل الحالات النفسية هو الكبت الجنسي أو بمعنى آخر مرده سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر، الميل للإشباع الجنسي، والمجهود الكبير الذي يبذل لكبت ذلك الميل. وإن كثيراً من المصابين بالقلق لا يدركون أن سبب ذلك هو

الكبت الجنسي أو بمعنى آخر أن سبب القلق رغبة جنسية تعيش في قلب المريض الحائر.

وأضرب مثلا بقصة شاب في ريعان الحياة جاء يستشير من قلق نفسى شديد، فهو يشك في كل شيء أمامه ولقد بلغ به الشك حدا أن بات لا يصدق عينيه، فإذا رأى لوناً أحمر لا يفتأ يخالط نفسه ويعيد النظر ليتأكد من أن هذا اللون أحمر وليس باللون الأسود أو الأزرق، وإذا ترك منزله مثلا في المساء المتأخر وأراد الخروج لاستنشاق بعض النسيم فقبل أن يغلق الباب خلفه يتأكد من أن جميع أضواء المنزل مغلقة، ثم يذهب إلى الباب الخارجي ويستعد لمغادرة الدار، ولكنه لا يلبث أن ينتابه الشك مرة أخرى خشية أن يكون قد نسي مصباح الغاز مشتعلا فيعود ليتأكد من أنه مطفأ ثم يبالغ في الاحتراس فيعمد إلى المفتاح العمومي (المحبس) فيغلقه ويغادر الدار، ولكنه لا يلبث أن يتذكر أنه لم يغلق الباب الخلفي خصوصا وأن خادمته تنام في مخدع بجوار هذا الباب الخلفي. وهو يخشى أن يتسلل اللصوص ويعثرون بالخادمة فيقتلوها وهم في سبيلهم إلى السرقة. وفي هذه اللحظة يزداد به القلق ويزداد به الاضطراب ثم لا يلبث أن يعود إلى الدار ليتأكد من أنه أغلق الباب الخلفي، ثم يهم مرة أخرى بمغادرة هذه الدار بعد أن يلقي عليها نظرة أخيرة ليتأكد من أن كل شيء هادئ، ويؤكد لنفسه أنه متأكد من سلامة الأمور ثم يخطو خطوة إلى الخارج ولكنه لا يلبث أن يعود فيقنع نفسه بأن الوقت قد ضاع وأن المساء متأخر وأنه من الخير له أن يبقى في داره فلا يخرج، ثم بعد ذلك يذهب إلى حجرته فيلق بنفسه على سريرها مكدودا مجهدا متعبا.

ما الذي حدث بالضبط؟! وكيف نبت الشك في قلب هذا الرجل؟! وكيف تطور به إلى القلق الشديد؟!

نبت هذا القلق من تعقد الأمور في نفسه ومن اضطراب الحقائق مع الأوهام، فالغاز والكهرباء والباب الخلفي، كل هذه المسائل أعذار وحجج يريد أن يتخذها وسيلة ليحوم بها حول الخادمة، فكل الذي في سريرة هذا الرجل هو رغبة جنسية مكبوتة نحو هذه الخادمة، فالشيطان يوسوس له ليتسلل إلى حجرتها بينما الضمير يقول له: لا، ويعود الشيطان مرة أخرى فيقول له: "ارجع إليها يا رجل، إنها تحبك وهي تنتظرك على أحر من الجمر" بينما الضمير لا يزال على موقفه يأبى به أن ينزل في حبه وحياته إلى هذا المستوى الحقير.

وهكذا ترى الصراع شديدا بين الرغبة في الحصول على الفتاة وبين الامتناع عنها، أو بمعنى آخر الصراع بين الشيطان والضمير أو بين العقل الباطن والعقل الواعي.. إن هذا الشاب يريد الاستحواذ على خادمته، ولكن ما يمنعه من الحصول عليها هو الخوف من النتائج السيئة فقد يراه أحد أفراد العائلة أو قد تؤدي الصلة بها إلى فضيحة عامة، أو..، أو.. الخ. ومن ثم خلقت منه هذه الرغبات المتضاربة نفسية حائرة بين اتجاهين مختلفين أو بمعنى آخر الضمير مع النفس على مسرح حياته.

وثمة لفتة أخرى على هذه القصة نجد أن لها جزوع أخرى في الماضي، فقد حدث أن تعرضت حياة والد هذا الشاب وهو في ربيع حياته إلى فضيحة علنية، فقد كان على اتصال بإحدى الخادمات، وجره هذا

الاتصال إلى مشاكل عديدة كاد يقضي على كبريائه وكرامته، فكأن ابتعاد مريضنا عن الخادمات وخوفه منهن إنما لكي يتحاشى المصير السيئ الذي تعرض له أبوه.

إن هذه القصة صورة ناطقة للصراع الذي يثور بين الضمير والنفس، فالضمير هو دائما أشبه بالرجل اليقظ تحدوه الحكة والروية، أما النفس، والنفس أمارة بالسوء، فميالة دائما إلى التهور وتذوق الجيفة دون تفكير في النتائج السيئة.

لا شك أن القلق والاضطراب مرده الناحية الجنسية المكبوتة، فعوامل الكبت تخلق في الإنسان روح التمرد والانفعال والثورة على ناموس الحياة مما يؤدي به إلى الانهيار التام فالانتحار.

وأنت إذا حاولت أن تدرس حياة العصبيين والذين يسودهم روح التمرد والقلق فيجب أن تذهب إلى الأعماق حتى يتمكن لك أن ترى حقيقة الانفعالات التي رسخت في اللاشعور أو أعماق العقل الباطن.

وهذه قصة شاب في ربيع الحياة مهموم مضطرب يشعر بقلق وحيرة، ومرضه فلتة سقطت من عهد الماضي، فقد قضى فترة طفولته في عيشة مع أخته، فشب شديد التعلق بها، شديد التأثر لها. فكانت إذا غضبت عليه اسودت الدنيا في ناظريه وإذا رضيت عليه ابتسمت له الحياة، وكان لها سلطان قوي على تكوينه، فلما نضج وبلغ همة الرجال راحت تبتعد عنه فتزوجت مما أثر على شخصيته فأصابته خيبة أمل فابتعد عن كل النساء

إكراما لها، وجره ذلك البعد إلى أن يلقي بنفسه إلى ناحية أخرى غير طبيعية فأصيب بالشذوذ الجنسي، ولكن الأنفة تملكته فسرعان ما نفض يديه من هذا الشذوذ، وراح يعوض النقص ويبالغ في حياته. يعيش عيشة أشبع بعيشة "دون جوان" ثم أحب فتاة فتزوجها وأنجب منها طفلا. ولكن حدث بعد ذلك أن توفي زوج أخته فأصابته نكسة ألقت به إلى شبه غموض وانهيار عام.

وبدا واضحا من التحليل النفسي أنه واقع تحت عاملين متناقضين؛ فتحرر أخته من زوجها أفسح الطريق أمامه ليعاود عهد الطفولة فيعيش معها بينما مازالت زوجته تقف حجر عثرة تحول دون التقرب بينه وبين أخته.

ولقد حاولت جاهدا أن أزيل من ذهنه صورة التعلق بالأخت، ولكنه لم يتمكن من التحرر من هذا التعلق فقد كان تأثره بها شديدا وكان من العسير عليه أيضا التخلص من زوجته مما أوقعه في حيرة نفسية فآثر الانتحار.

إن في الحياة قصصا عديدة من هذا النوع يسدل الستار عليها دائماً بالانتحار، فالموت هو الوسيلة الوحيدة الذي يشفي هؤلاء العصبيين فقد درست بعض قصص الأمراض العقلية، وكانت المريضة فتاة مدمنة على تعاطي "الكوكايين" مما أثر على كيانها العقلي فكانت تغيب عن وعيها أياما وتظل في غيبتها تناجي أباها بكلمات عذبة، ثم تثوب إلى وعيها فتجلس مبتئسة حزينة. وكان والد هذه الفتاة سكيرا دخل مرة في لحظة

الغيبوبة فوجد ابنته، ثم أحس بعد ذلك بهول الجريمة فراح يتناول الكوكايين لينسى النكبة التي أقدم عليها وراح يناول ابنته المخدر بدورها، وأخيرا انتحر وذهبت ابنته إلى مستشفى الأمراض العقلية.

أما القصة التالية فترينا أثر الانفعالات في النفس فتجعل الأمور تبدو أمام العين في غير شكلها الحقيقي. وهي قصة فتاة في السادسة والعشرين جاءتني في شبه اضطراب، فهي ترى الناس أمامها كالأشباح، لا تقدر على أن تميزهم تماما، ولقد ذهبت – قبل مجيئها لي – إلى عديد من الأطباء، ولما أعيتها الحيل في أمرها ذهبت طوعا إلى مستشفى الأمراض العقلية، ولكن المستشفى رفض قبولها بحجة أنها تتمتع بكمال العقل.

ولقد أزاح التحليل الستار عن حقيقة أمرها؛ فأرانا امرأة شديدة التعلق بأخيها في ماضي الطفولة؛ فقد ركزت عليه عينيها، ومع أنها مخطوبة الآن إلى رجل تحبه حبا قويا إلا أنها مازالت تحتفظ بما يسلط الضوء على أخيها الذي ظل يملأ خيال ذهنها فكان حبها لهذا الخطيب – في الواقع – استبدالا لعواطفها لأخيها – على أنها مازالت تحب أخاها في شخص هذا الخطيب.

وعلى بساط التحليل النفسي وضعنا أمامنا هذه الحقائق محاولين أن نبسط لها المسائل بأن الحل الوحيد هو الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يثير انتباهها لأخيها، ولكنها لم ترض الاعتراف معنا بأن سبب الضباب الذي يخيم على عينها هو الكبت الجنسي أو بمعنى آخر التعلق بأخيها معللة بأن الانفصال عن أمها وأخيها ليس بالشيء الهين خصوصا وأنها تعتمد عليهما

ماديا، فاقترحت عليها أن تسرع في مراسم الزواج كي تتيح لها الفرصة في الابتعاد عن عائلتها. ولكنها كانت تتلكأ بالرغم من الحب العنيف الذي تحدثت لي به عن خطيبها تشعر كأن شيئا يجذبها من الخلف حتى لا تتزوج.

هذا الشعور تشبث عنيف في نفسها للمحافظة على تراث الماضي أو بمعنى آخر تشبث بأخيها.

لقد تحطمت كثير من الزيجات على صخرة التعلق بأحد أفراد العائلة، فالفتاة الشديدة التعلق بأمها أو أبيها أو أحد أخواتها، إذا تزوجت سرعان ما تحس بالفراغ الكبير الشاغر في قلبها فتشعر بالوحدة والحنين نحو أهلها، ثم لا يلبث هذا الحنين أن يتزايد ويكبر في ذهنها حتى لا تقدر على مقاومته بينما يزداد الإحساس بالكراهية نحو زوجها لأنه يقف أمامها بمثابة العدو الذي جذبها من أهلها وفصلها عن معبدها الأول.

ونعود إلى القلق عندما يصل إلى حالات الأزمات فيمسي أشبه بالهستيريا ويمسي المريض في حالة من التوتر العصبي الشديد الذي يكاد يقترب من مرتبة الجنون. وأضع أمام القارئ هنا قصة فتاة في الثانية والثلاثين، والفتاة تقية ورعة تقضي معظم وقتها على السجادة، ولكنها مصابة في أعصابها، فهي ترى أنها تملك قوة خفية من عند الله فلها مقدرة في الحكم على أفراد البشر، من منهم يذهب إلى الجنة؟ ومن منهم يذهب إلى النار؟ وتعتقد أن في قدرتها أن تسمم الناس بمجرد إشعاعات ترسلها من عينيها.

إن سبب هذه الهزات العصبية التي تبدو أمام الناس كان مسا من الجن، سببها الضغط على أعصابها من جراء الكبت الجنسي، فلهذه الفتاة أخت أخرى جميلة خلابة، وكان لطول المقارنة بينها وبين أختها ما خلق في قلبها الشعور بمركب النقص فراحت تعيش في حرمان من استكمال الشخصية. ثم شاءت الظروف أن يتقدم لها أحد الخطاب ليطلب يدها ولكن الخطبة لم تتم، فراحت تتمنى له المرض، وشاءت الصدفة أن يمرض، ثم انتقلت بتمنياتها السيئة إلى أختها الجميلة فتمنت لها أن تصاب بسوء فشاءت الصدفة أن تصاب بالمرض أيضا، فاعتقدت أن في نفسها قوة سحرية متصلة بالسماء تستجيب لإرادتها.

إن شأن هذه المرأة شأن كل العصبيين الذين يعتقدون أنهم يملكون قوة سحرية خفية يستنزلون بها اللعنات على أعدائهم، وفي كل الحالات التي يعتقد فيها المريض أن في مكنته أن يسبب ضررا إلى آخر يكون مرد هذه الحالات، كبت جنسي دفين في قاع النفس.

حدث أن استدعيت إلى زيارة فتاة في الرابعة والعشرين مريضة بالهستيريا، وكانت الفتاة مليئة الجسم تجري في وجنتيها الحمرة تحدثك بالصحة، اللهم غير شحوب ورعشة واضحة في عينيها. وفهمت من مجريات كلامها أن المرض بدأ عندها منذ عام فقد حدث أن اضطرت أمها أن تغيب عن دارها بضعة أيام ولمحت الفتاة الغدر في عيني والدها فراحت تخشاه فكانت إذا ذهبت إلى مخدعها بالليل أحكمت غلق الباب بالمزلاج وكانت في النهار دائبة الاحتراس منه فلم تمكنه من فرصته، وكانت في ذلك

الوقت تعمل سكرتيرة بأحد المكاتب، وقد لاحظ زملاؤها اضطرابها وقلقها في ذلك الحين، فحاولوا الاستفسار منها عن السر، ولكنها لم تخبرهم، وظلت على هذا المنوال أسبوعين حتى خارت أعصابها تماما، فلم تعد تهتم بعملها أو حياتها، وبانت امرأة سارحة الذهن غائبة التفكير سريعة الغضب سريعة الثورة والانفعال.

وقابلت والد الفتاة وحاولت أن أستفسر منه عن حقيقة ما ذكرته هذه الفتاة، ولكنه كان يتحاشى نظراتي وأسئلتي وكان خجولا مهموما مما دعاني للاعتقاد بأن محور كلامها يقوم على كثير من الصحة، وتحدثت لي عن أمها فقالت بأنها امرأة شريرة حاولت مرة أن تضع لها السم في الطعام ولكنها رفضته، وكان في حديثها عن أمها ما جعلني أعتقد بكذبة الرواية عن أبيها في ادعاءاتها بأن والدها حاول أن يخدشها إدعاء خال من الصحة وهي تتمنى لو أن يقترب والدها منها، ومن ثم انقلب هذا التمني إلى خيال حتى بات في اعتقادها الخيال حقيقة، وساءت حالة هذه الفتاة وبات من المستحيل علاجها مما استدعى نقلها إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث ظلت هناك إلى الأبد.

وجاءني مرة مريض في الثانية والعشرين شبه فاقد الذاكرة، وقال لي والده بأن ابنه شاب مجتهد في حياته المدرسية، ولقد أظهر التحليل بأن هذا الشاب شديد التعلق بوالدته يكن لها أعمق الحب، ولقد اشتد به الحب لها حتى بات لا يحلم إلا بها وسيطر حبها عليه حتى أفقده كل إحساس بكل شيء في الحياة وأفقده عقله وهو أغلى شيء.

والغريب في هؤلاء المرضى، أنهم لا يعترفون بأمراضهم كنكبة أفقدتهم لذة الحياة واحترام المجتمع وهم لا ينظرون إلى شذوذهم نظرة الناس لهم لأنهم يعتبرون هذا الشذوذ غاية السعادة التي يهدفون إليها، وهم لا يذهبون إلى طلب العلاج إلا في الحاجة القصوى عندما يشتد الأمر بهم ويصبحون فريسة الوقوع في أيدي رجال القانون أو موضع احتقار المجتمع أو الشعور بضغط عصبي عنيف، وهم إذا ذهبوا للعلاج لا يفتئون ينتحلون الأعذار للتخلص من العلاج، زاعمين لطبيبهم بأنهم وصلوا ذروة الشفاء أو أن مواردهم المالية لا تساعد كثيرا على الاستمرار في العلاج، وإني لأذكر مرة أني كنت أعالج مريضا تعود تعاطي الكوكايين واعتمدت في علاجى على الإيحاء والتنويم المغناطيسي، وكنت أسأل المريض في كل مرة يزورني عن مدى أثر المرض عنده، فكان يزعم بأنه يدب نحو الشفاء سريعا مع أني في الوقت نفسه كنت واثقا بكذبه وأن الطريق يتأخر به، أما سبب ذلك فهو سهولة حصوله على الكوكايين مما كان يقلب العلاج رأسا على عقب..

وترجع صعوبة علاج المنحرفين لتمكنهم من سهولة الحصول على ما يشبع شذوذهم، فمثلا المصاب بالشذوذ الجنسي إذا وجد الأرض الخصبة سرعان ما يترعرع مرضه، وهو إذا لجأ للعلاج دون الامتناع عن مورد الانحراف فلا فائدة في علاجه.

الأسرار المكبوتة

هناك بعض المرضى يعتقدون بأن الناس تراقبهم فيخشون مثلا أن يلقوا ببعض الأوراق إلى الطريق العام أو أن يهرولوا في سيرهم لأن الناس تعد عليهم الخطى وهم يتكلمون بحذر ويتحركون باحتراس وهم دائبو الظن والتفكير شديدو الحساسية، وفي الواقع ما يدفع أمثال هؤلاء إلى ذلك التصرف الشاذ هو ما يحاولون أن يخفوه من أسرار خطيرة في أعماقهم فتراهم يبالغون كثيرا في المحافظة عليها عاملين دائما أن تظل هذه الأسرار مدفونة في القاع دون أن يعرف بها أحد فيحيطونها بسياج متين من السكان ناسين أن هذه التصرفات الشاذة وأن هذه المبالغة في الكتمان إنما تكشف عن نفسيتهم وتكشف عما يجيش في أعماقهم.

ولعل في هذا ما يفسر لنا من أن الكثيرين الذين يعانون أزمات نفسية إنما يعانون في الاحتفاظ بسر هذه الأزمات دون الإفصاح عنها، فمثلا المرأة المصابة بداء الوسوسة في المبالغة بغسل يدها دائبة التحدث إلى الناس عن النظافة زاعمة أن النظافة من ضروريات الصحة العامة، ومثلا المرأة المصابة بداء الوسوسة في تنظيف بيتها تظل طول وقتها تعمل في كنس الدار وغسل النوافذ ومسح الأرض معللة ذلك بأنها "ربة بيت" ناسية أن هذه المبالغة من شأنها أن تكشفها أمام الناس.

إن هؤلاء مرضى يخفون بين صدورهم أسرار دفينة لا يريدون الإفصاح عنها ويبالغون في الاحتفاظ بها حتى يكادوا ينيخون تحت عبء وزرها وأن كثيرا من هؤلاء المرضى الذين يحضرون لنا في طلب العلاج وساوسهم لا يريدون فعلا العلاج ولا يفصحون لنا عن أسرارهم برغم المجهود الكبير الذي نبذله معهم، وهم إذا أفصحوا عما يساورهم من قلق يظلون محتفظين لأنفسهم بجزء ولو يسير من هذه الأسرار . ويظل هذا الجزء اليسير في صدورهم بمثابة الكوبري الذي يعبرون عليه ليعودوا إلى أمراضهم.

وإن الذي يحمل في صدره سرا ويبالغ في الاحتفاظ به سوف ينسى هذا السر بمرور الأيام، ثم يصبح بعد ذلك أسير عادة المبالغة في حفظ شيء في صدره، ولكن لا يعرف ما هو هذا الشيء الذي يحمله . ثم يتصرف في الحياة تصرف الذي فقد شيئا عزيزا عليه، ولكنه لا يعرف ما هو هذا الشيء، فهو أشبه برجل خرج من داره ونسي به كتابا كان قد أعده ليأخذه معه ثم يعود إلى الدار ليأخذ الكتاب ولكنه ما يكاد يصبح بالدار حق يكون قد نسي ما كان قد عاد من أجله، فيظل يدور في حيرة من أمره يعبث بالأشياء متسائلا مع نفسه عن السبب الذي جاء له وحدا به للعودة.

وثمة لفتة أخرى على أمثال هؤلاء العصبيين الذين يبالغون في المحافظة على السر تجد أنهم أنفسهم غير قادرين على حمله فيذهبون إلى الطبيب محاولين الإفصاح عما في صدورهم ليجد لهم العلاج، ولكنهم ما أن

يصبحوا أمام الطبيب حتى تنعقد ألسنتهم ويرفضون الكلام مهما كان السبب أو الداعي.. حدث أن جاءتني فتاة تشعر بالبرود الجنسي وراحت تتحدث لي عن تعاستها في الحياة الزوجية ولما أردت منها أن تذكر لي ما إن كان زوجها قاسيا أو شاذا في معاملتها راحت تبكي وراحت تمتدحه، ولما أردت أن أعرف منها أي بصيص يدلني عن مبعث هذا القلق الذي يجيش في نفسها لم تزد على أن ألقت الدموع سخية من عيونها دون أن تزيدني شيئا.

وبالاختصار لم أتمكن من أن أصل إلى شيء مما يجيش في صدرها فقد كانت تبالغ في المحافظة على سرها، فلم ترد أن تفصح لي عن شيء لأن برودها الجنسي مع زوجها كان ناجما عن شذوذ جنسي مقنع، فقد عاشت هذه المرأة تقضم التفاح مع فتاة أخرى، وهي تخشى أن أعالج برودها فتفقد بذلك حب هذه الفتاة الأخرى. هذه القصة ترينا المبالغة في التحفظ في السر حتى لا يفقد المريض اللذة التي يحلم بها من جراء إفشاء سره.

وحدث أن جاءني شاب يمتهن الصيدلة وقال لي بأنه دائب تخيل فتاتين تتصارعان مع بعضهما ويتملكه هذا الخيل طول يومه وأنه دائما ما يجد نفسه فريسة العادة السرية نتيجة لهذا التخيل مما أودى به الأمر إلى الانهيار العصبي.

ولقد تفهمت سريعا مدى هذه الأوهام التي تعبث بخياله فرحت أجاريه في حديثه بل إني ذهبت أكثر مما كان يتصور فأكملت له خيالاته

فقلت له "وأنت ترى أيضا أن هاتين الفتاتين اللتين تتصارعان مع بعضهما سرعان ما تأتي إليهما نساء أخريات عديدات فيتبارزون مع بعض"

وكان تأثير حديثي عليه شديدا فهم من مجلسه مأخوذا في دهشة وأمسك بكلتا يدي كما يمسك المجرم البرئ، وراح يهزني في غرابة قائلا "وكيف عرفت ذلك؟! إنني لفي حيرة منك!!" ومنذ هذه اللحظة، أعني منذ أن أفصحت له عما يجيش في صدره لم أره حتى اليوم.

وإني لأتساءل إذن عن الداعي إذن الذي يحدو هؤلاء المرضى للبحث عن الشفاء.. هل هم يريدون العلاج حقيقة؟ أم أنهم يريدون أن يرضوا ضمائرهم بأنهم يحثوا عن العلاج دون أن يصلوا إليه أو يهتدوا له.

إن الرغبة في العلاج والخوف من العلاج فكرتان متناقضتان تضاد كل واحدة منهما الأخرى. وهذا التضاد هو ما يضع المريض تحت هزة نفسية حادة.

حدث أن جاءتني زوجة أحد أصدقائي وبسطت أمامي شكواها وقالت بأنه ينتابها اضطراب عصبي شديد، وأنها ترددت منذ ستة أشهر قبل مجيئها لي، ولكن ظروف في ذلك الحين لم تمكنني من معالجتها لأن وقتي كان مزحوما بالمرضى الآخرين فزكيت لها أحد أصدقائي ولكنها أصرت على أن أتولى بنفسي علاجها فطابت منها إزاء ذلك أن تنتظر بضع أسابيع حتى يسمح وقتي لقبولها، ولكنها رفضت الانتظار، وقالت:

- "لقد انتظرت ستة أشهر قبل ذلك ولما أتيت لك أراك الآن ترفض علاجي فما الداعي إذن لمجافاتي".

- "أنا لا أرفض علاج أحد ولكني لا أملك الوقت بينما أزكي لك أحد الأطباء الذي لا يقل كفاءة عني.."

- إني لا أطلب منك غير العلاج، وأنا لا أقدر على الانتظار، فإذا لم تساعدني الآن فإني سأنتحر.

- "أنت تطلبين المستحيل، وتلجئين الآن إلى التهديد.. لقد ترددت ستة أشهر قبل مجيئك لي ثم لا تقدرين على الانتظار أسابيع آخرى فما الداعي لهذه اللهفة؟!...

وهكذا دارت المناقشة على هذا النحو ولشد دهشتي أن رأيت المرأة تركع على قدمها في ذلة تتوسل لي وتذرف الدموع وتضرع أن آخذ بيدها، وأخيرا اضطررت لأن أترك لها الحجرة فقد كانت مواعيدي مزدحمة بالمرضى الآخرين وهي رفضت أن تخرج من عندي.

قد ترمونني بالقسوة ولكن ما الذي في يدي حتى أقدمه لهذه المرأة بينما هناك مريضات أخريات غيرها في سبيل العلاج.

وعقب ذلك بينما كنت في حجرتي لفحص بعض مرضاي دخلت علي الممرضة في لهفة وقالت لي بأن السيدة التي كانت عندي قد ذهبت إلى سطح العمارة وهددت بأن تلقي بنفسها إلى الطريق العام. لعلنا لاحظنا

الآن مدى ما يجيش في صدر هؤلاء المرضى من التردد في طلب العلاج وهم إذا لجئوا إلى العلاج سرعان ما يلتمسون أقل الأسباب لقطعه.

وأضع أمام القارئ قصة أخرى شبيهة بالقصة السابقة، فقد حدث أن جاءني شاب في التاسعة والعشرين من عمره وراح يحدثني عن القلق الذي ينتابه منذ الطفولة، وقد قال لي بأنه تردد مرات عديدة على كثير من الأطباء دون أن يصل إلى علاج وأخيرا جاء لي – فأشفقت عليه – ولكن وقتي كان مزدحما بمواعيد عديدة من المرضى الآخرين فلم أتمكن من قبوله فاعتذرت له ولكنه ألح في ضرورة أن أتولى علاجه وراح يلاحقني بخطاباته مهددا بالانتحار إذا لم أقبله ضمن مرضاي.

وأخيرا أخذت على عاتقي مهمة العلاج وراح الرجل يتردد على عيادتي يتحدث إلي عن همومه، ولمحت بين كلماته أنه يحاول أن يخفي سرا فرحت من جانبي أشجعه على الكلام، وراح المريض يواظب على العلاج يزورني كل يوم، ولمحت في حديثه أنه يخفي في أعماقه سرا فحاولت أن أجد ثغرة إلى صدره كي أتمكن من أن أزيح الستار عن هذا السر، ولكنه كان حريصا في أن يبعد عن ذهني كل ما قد يجعلني أشك في أمره.

وحانت منه مرة جملة عارضة عن أخته فلما أردت إيضاح الكلام أشاح بوجهه عني، فأوضحت له بأنه لن يصل إلى علاج طالما هو يحاول إخفاء الأمور عني، وأنه يجب أن يعدني بأن يكون صريحا معي، إلا أنه رفض ذلك الوعد ثم انقطع عن العلاج، ولكنه عاد لي بعد أسبوع وكانت أول جملة قالها لي أنني إذا أردت أن أستمر في علاجه فيجب ألا أذكر له

اسم أخته أو أتحدث معه في شيء يخصها، ولكني أفهمته بأن العلاج يقتضي أن يفصح لي عن أسراره وليس له أن يفرض علي شرطا ثم أخبرته برغبتي في قطع العلاج، فقد كنت أهدف من وراء ذلك أن أحطم المقاومة النفسية التي تخامر الرجل، على أنه راح يتردد على عيادتي كل يوم لمدة شهر دون أن أوليه أقل اعتبار.

ثم انقطع عن زيارتي لالتحاقه بالجيش، على أنه ظل بعد ذلك يلاحقني بخطاباته يوميا، ثم بعد ذلك انقطعت أخباره. وإني لأتساءل مع نفسي وقد ذهب الرجل إلى سبيله، فيما لو كان عندي بعض الصبر. هل كنت أفلح في الوصول إلى السر؟

لقد خبرتني تجارب السنين بأنه من الصعب الوصول إلى حل مع أمثال هؤلاء العصبيين، فبالرغم من الصراع النفسي الذي يقاسونه وبالرغم من الميل الشديد في أن يتخلصوا من السر الذي يحملونه إلا أنهم يستميتون في المحافظة عليه.

ولقد كان يتلخص سر هذا الكتاب في غرام مكبوت بأخته كبت منذ الماضي البعيد، فكان يحس نحوها بميل جنسي عنيف قاومه طوال السنين وهو يخشى التحدث لي عنه لأنه يعرف مدى العار الذي يلاقيه من جراء الإفاضة في الكلام.

جاءتني امرأة مصابة بانهيار عصبي فأحلتها إلى أحد مساعدي الذي حاول معها جاهدا أكثر من ستة أشهر دون أن يصل إلى بصيص باهت

من النور يريه مفتاح العلاج، فقد حرصت المريضة على الاحتفاظ بسرها، وقد اكتشفت بعد ذلك أن هذا السر يتركز في مرضها بالشذوذ الجنسي، فلما واجهتها بحقيقة أمرها امتقع لونها وامتنعت عن زيارتي.

إن الذي يحدث هو أن المريض يكون مصابا بانحراف جنسي كالشذوذ مثلا، ثم يصمم بينه وبين نفسه على السير إلى الناحية السليمة وعن العدول عن هذا الطريق الأعوج، وفعلا يأخذ طريقه السوي ويرنو نحو النور، ولكن حنينه إلى الشذوذ يدفعه دائما للسير القهقرى.

وفي كل الحالات التي تضطرب فيها النفس يكون سبب الاضطراب سر دفين، وأن هذا السر إما معروف إلى المريض أو أنه غائب عنه في أغواره فلا يعرف كنهه. وأن العلاج لا يتم حتى يمكن لنا من إزاحة الحجر الثقيل الجاثم على صدر المريض

العقد النفسية

إن الذين تراهم في الحياة مهمومين يحملون الدنيا فوق رؤوسهم يدورون في آلامهم كما تدور (أم العروسة في ليلة الفرح) ويلفون كما تلف النحلة، يخرجون عابثين ويأتون إلى دورهم عابثين هؤلاء يعانون عقدا نفسية، وأنت إذا حاولت أن تعرف شيئا من أمرهم أو الداعي إلى هذه العقدة لما وجدت لها سببا . ولكن إذا تمحصت في حقيقتهم وجدت أن السبب راسخ القاع منذ الماضي البعيد وأن صدورهم مفعمة بالأحداث الكثيرة، والغريب في هؤلاء أنهم هم أنفسهم لا يدركون أين تقع موضع العقد في قلوبهم.. ولكنه إذا تفرست المسألة وضح لك أن لكل عقدة أصلا أو سببا، فمثلا الشاب الذي لم يكن له دراية بالنساء، ثم حدث له أن كانت أول امرأة تعرف إليها هي امرأة قابلها عرضا وتحدثت إليه في أسطورة طويلة عن مبادئ الفضيلة ثم استدرجته إلى بيتها ثم بعد ذلك رضخت معه لإرادة الشيطان، ثم شاءت الصدف وهو خارج من دارها أن يرى زوجها وأولادها قادمين نحوها، فتنزل إلهم لتستقبلهم في ثغر باسم ثم تلقي بنفسها بين أحضان زوجها وأولادها.. ترى ماذا يكون شعور هذا الشاب في المستقبل؟! هل يصدق زوجته فيما بعد مهما تحدثت إليه عن العفة وقد رأى بعينيه مدى خديعة المرأة المتزوجة لزوجها وأولادها وكما حاولت أن تؤكد إليه بأن هناك نساء شريفات فلن يصغى إليك.

تنبت العقد من صدمة عاطفية، ثم ينسى الإنسان سبب الصدمة، ولكن العقدة تظل حية في نفسه، فلو مثلا خلب طفلا لون الجمرة الحمراء ووضعها في فمه على أنها ثمرة واحترق بها لسانه فستتولد في نفسه عقدة ضد كل لون أحمر، وإن كثيرا من الصدمات ما يكون لها أثر شديد فتؤدي إلى كوارث نفسية، والتفسير لهذه الكوارث أن العقل عجز عن تحمل عبثها الثقيل فانهار تحت الضغط العنيف وضاع، فكل عقل له حد ومقدرة على تحمل الصدمات فإذا زاد الحد تحطمت هذه القدرة.

والعصبيون أقل الناس قدرة على تحمل الضغط أو بمعنى آخر أن الصدمات العاطفية التي تنتاب العصبيين كثيرا لا يؤدى أمرها إلى الجنون، ويمكن تشبيههم برجل يعبر قناة ضيقة لا تسع سوى قدم واحد ويحمل على رأسه أشياء كثيرة فكلما ازداد ما يحمله كلما كثر تعرضه لخطر السقوط.

حدث أن أحب شاب فتاة، وكان والده عشيقا لهذه الفتاة وكان يضربها ويعذبها. وكان الشاب يرى حبيبته وهى تتألم دون أن يقدر على أن يقدم لها خيرا أو نفعا، فأصابته لوثة ذهبت بعقله، ولقد مرت بي قصص آثمة كانت تدور فصولها بين أم وابنها وبين أب وابنته وبين أخ وأخته، وانتهت جميعها بالجنون.. وحدث أن غررت امرأة في الخمسين بفتى في الرابعة عشر . وكانت الصدمة شديدة إلى نفسه حتى فقد عقله . وما أوديب الملك إلا رجل قتل أي دون أن يعرف أنه والده ثم زوج أمه دون أن يعرف أيضا أنها أمه، فلما عرف بعد ذلك حقيقة القصة وحقيقة أبيه

وحقيقة أمه انتابته لوثة عقلية ففقأ عينيه وهجر المدينة إلى الفيافي، وراح يعيش بين الجبال دون عقل . ومن أوديب الملك اشتق العلماء كلمة عقدة أوديب فراحوا يطلقونها على كل مريض شديد التعلق بأمه.

ومرد العقد النفسية هي الجنس وتصرفات البشر من حب وكراهية وبغض مرده الميل الجنسي، وأنت إذا أردت أن تعالج مثل هذه الانفعالات فيجب أن تذهب إلى القاع لتعرف السبب الأصلي.

جاء لي مريض يعمل صرافا، وكان كثير التردد في عد النقود يبالغ في خوف الخطأ من العد، هذا التردد مظهر حائر لما يجيش في نفسه من ميل جنسي مكبوت، فهذا الرجل يحب امرأة متزوجة وقد عرفت زوجته بقصة غرامه فنبهت زوج الأخرى، ولكنه مع ذلك وبالرغم من كل هذه المخاطر عجز عن كبح جماح نفسه من زيارة عشيقته، فكان يذهب إليها حتى إذا اقترب من بابها عاد أدراجه خشية أن تكون زوجته متربصة له، أو خشية أن يلصق به زوجها سوءا . وقد انعكست هذه الحالة النفسية على عمله فبرزت في صورة التردد الذي ينتابه في حالة دفع النقود إلى الناس.

وإن من الأمراض النفسية ما نراه من أن وقوع كثير من الرجال في حب النساء اللاتي من صنف رخيص فيقعون في غرام نسوة ساقطات أو خادمات المنازل أو البائعات في الحوانيت العامة. وقد يكون الرجل متزوجا ومحترما وله مركز اجتماعي ممتاز، ولكنه بالرغم من ذلك يفتتن بخادمته ويعرض نفسه وسمعته للخطر.. وكما يقال عن الرجل يقال عن المرأة.

فمن النساء اللاتي يتمتعن باسم وسمعة، من يكن لهن مغامرات عديدة مع السائقين أو الخادمين أو البوابين. وإن مرد ذلك كله عقدة نفسية نبتت في عهد الطفولة، فالرجل الذي نبت وهو طفل بين أحضان خادمة أو تركه والده بين أيدي مربية، يرسخ في ذهنه أن هذه المربية أو الخادمة هي مركز الثقل الذي تدور عليه محور حياته فكأن الاشتياق إلى الطبقات الدنيئة هو الدافع القوي الذي يرغم الإنسان على النزول في حبه إلى أسفل.

جاءتني امرأة صارخة الجمال نبتت في بيت العز، ولكن أمها أهملتها وهي طفلة فعاشت في كنف الخادمين والخادمات فلما بلغت السن تعرفت إلى حوذي ثم انتقلت منه إلى الطاهي ثم تعرفت على كاتب بسيط يعمل بالمياومة فتزوجته. وبعد الزواج أحيت (السفرجي)، ثم أحبت السائق وشاء سوء حظها أن يكتشف زوجها هذه العلاقة الآثمة فطردها إلى الشارع وفي الشارع الكبير وجدت الحرية الرخيصة فكانت بنفسها بين أحضان الجماعات البذيئة، هي على شاكلتها، ولكن عشاقها كانوا من نوع أرستقراطي، فبينما الابنة كالذباب تعف على تعيش عيشة رخيصة كانت الأم كالنحلة تنتقل بين الأزهار.

وهناك رجال كثيرون يتشبهون في مغامراتهم بتلك الفتاة فلا يغلبهم من النساء إلا النوع الرخيص فيترك زوجته الجميلة الطاهرة ليجري وراء خادمة ذميمة.

حدثني شاب عن حياته فقال بأن أمه وهو طفل تركته في صحبة الخادمات، فكان يرى في مربيته المثل الأعلى في الحياة، فلما اشتد ساعده راح يميل إلى الوحدة فكان يرى نفسه أشبه باليتيم. وكان يذهب إلى المراقص العامة ليفرج عن نفسه السأم، وكان يلقي بنفسه بين أحضان الكثيرات، ولكنه سرعان ما سئم هذه العيشة البوهيمية فتزوج امرأة طيبة أخلص لها الود، ولكن هذا الإخلاص لم يدم طويلا. فقد حدث أن استخدمت العائلة فتاة سرعان ما راح يبادلها النظرات وأدت به هذه المغامرة إلى أن اكتشفت زوجته قصة الخيانة والإثم فغضبت وطلبت الطلاق، وأمام توسلاته وإبقاء على سمعته وحماية الطفل الرضيع رجعت في قرارها واكتفت بأن تطرد الخادمة، ولكنه لم يلبث أن وجد نفسه مرة أخرى عبداً لشهواته، ينظر بشراهة إلى الخادمة الجديدة أو أي خادمة يستخدمونها في دارهم ليعيد تمثيل الرواية من جديد دون أن يقيم وزنا للكرامة أو الدعة.

إذا ألقينا ضوءا على هذه القصة من نواحيها المختلفة وجدنا الباب ينفتح عن تعلق شديد بالماضي، فحبه للخادمات ارتد إلى عهد الطفولة إلى العهد الذي كانت تشرف عليه المربية، كما نجد أيضا أن الباب ينفتح عن كراهية بغيضة نحو زوجته فهو لا يحبها، وأن حبه لها سطحي اقتضته الحياة الاجتماعية، وهو بارتمائه في أحضان الخادمات إنما هو مظهر من مظاهر الانتقام من الزوجة، فزوجته كانت تحتقر عائلته، وهذا ذنب لا يمكن إغفاله.

ويجب أن نذكر أن حب العاهرات والافتتان بهن مسألة شائعة، وأن كثيرا من الشبان من عائلات محترمة يتزوجون عاهرات بدافع اعتقاد بأن انتشالهن من الوحي عمل إنساني جليل، ولكن الغرض الحقيقي هو أن هؤلاء الشبان لا يحلو لهم إلا النوع الساقط من النساء. ذلك لأن في حياتهم خدشا من الماضي وأن بها جرحا عميق.

هؤلاء افتقدوا العطف في الحياة وخاصة عطف الأم فراحوا يتعطشون إلى من يعطف عليهم فبما افتقدوا ذلك العطف الطبيعي فراحوا يشترونه بالمال. ولطالما حمل الإنسان (العصبي) في ذهنه صورة لأمه تشبه صورة العاهرة، فكلاهما في عقله المريض متشابهان، فالأم تعيش لأن الأب ينفق عليها، كذلك شأن المرأة العاهر تقبل الواقع لأن الرجل يدفع لها. والعصبي دائب الشك في نسبه لأبيه يتساءل دائما في السؤال الذي يحيره ألا وهو هل هو فعلا ابنا شرعيا أم أن أمه أتت عن طريق السفاح وفي تصوره هذا يجرد أمه من الوضع الطبيعي إلى الوضع المتداعي، ومما يزيد له الخيال تأكيدا في تفكيره الضليل أن السيدة العذراء جاءت بابن لا أب له، وفي هذا ما يؤكد له الشبه بين الأم والمرأة العاهرة.

إن النفس البشرية مليئة بالاضطراب والتخيل، وإن الكثيرين الذين يعيشون في أوهام، إذا لم تنقذهم العناية الإلهية من أوهامهم ينحدر بهم الطريق إلى الجريمة والجنون؛ فقد حدث لشاب في العشرين من عمره كان كثير الشك في سلوك أمه فكان يترقب حركاتها ويفسرها بما يروق له، ولقد حدث مرة في الليل أن استيقظت أمه لقضاء حاجة فظن السوء فهم

مذعورا وأحضر سكينا طعنها به في بطنها فخرت على الأرض تتلوى، فلما رأى الجريمة ماثلة أمام عينيه انتابته لوثة من الجنون.

إن كثيرا من الاضطرابات جاءت نتيجة الصدمات العنيفة التي تعجز عن تحملها النفس. ولقد حدثتنا الكتب الفرنسية أن شابا كان ذميم الخلقة لدرجة كبيرة جدا فكانت تنفر منه النساء، وأمام العطف والشفقة قدمت الأم نفسها لابنها . ثم حدث أن رآها بعد ذلك بصحبة آخر فانتابته ثورة من الغيرة فقتلها ثم أصابته لوثة عقلية فراح بها في عالم الجنون.

إن قصصا عديدة من هذا النوع تحدث كل يوم وهي إن ألقت لنا ضوءا فإنما لتبرز لنا مدى ما يذهب إليه العصبيون في خيالهم وتفكيرهم ومدى ما يمازح هؤلاء العصبيون من ثورة على الأوضاع والتقاليد والقوانين فهم دائبو الصراع والنضال ضد الأوضاع وضد الأفراد يعتقدون أن الطغيان الاجتماعي قد عمت موجته على البشرية، وهم دائبو السؤال عن فوارق المجتمع العديدة يعتقدون أن هناك من العاهرات من هن في الواقع أشرف نفسا وأعلى سريرة من اللاتي يسموهن صالحات.

إن الدافع لهذا كله هو الالتواء النفسي الكامن في القاع، فالشاب الذي يذهب إلى الماخور ويقضي ليله بين البارات لو أن زوجته طلبت منه أن يقضي وقته في شرب الخمر بداره لرفض ذلك لأن للبارات وجلبة الناس سحر على كيانه الذهني مما يجعل الخمر طعما ومذاقا كذالك الشأن في كثير من الحياة الجنسية فكثير من النساء لا يلذ لهم الحياة الجنسية إلا في الظلام كالخفافيش، إذا أرخى الليل سدوله وغابت الشمس خرجت

تبحث عن لقمة العيش فتراهم يخلقون الغيوم ويطفئوا الأنوار ليبدءوا الجو الذي يريدونه، وهؤلاء انعكست فيهم هذه الرغبة على حياتهم العاطفية، لا يثور فيهم الميل الجنسي إلا إذا جعلت المرأة الدار جحيما وجلست إلى زوجها تؤنبه وتلومه وترميه الخيانة ثم تلقي عليه تهما جزافا.

وهناك نوع آخر من النساء لا تدرك فيه المرأة معنى الحياة إلا إذا شعرت بالخوف وأحست أن أحدا من الناس يتلصص عليها أو يراقبها ومثل هذه المرأة تفضل العشيق على الزوج والسبب في ذلك هو أن شخصية العشيق وطريقة اتصاله بها تشبع طابع التلصص والخوف والإحساس بأنها غير طبيعية.

وتميل المرأة في كثير من الأحايين إلى امتحان ذكائها ومعرفة مدى قدرتها على خداع الزوج وعلى امتيازها عليه بالذكاء، فإذا اتهمها زوجها مثلا بالغباء ونعتها ببلادة الذهن تلجأ إلى الغدر به وتمعن في خيانته لتؤكد لنفسها بأن لها قدرة على التحايل ولتؤكد لنفسها أيضا بأن الغباء والبلادة إنما من صفات الزوج الأبله الغافل عن زوجته، والعصبيات أكثر النساء قربا إلى السقوط في هوة الرذيلة ذلك لأن إحساسهن مرهف، أقل المسائل المغيرة تؤثر عليهن ويرون الأمور دائما بمنظار مكبر، ومن أجل ذلك كن كثيرات التغير، عواطفهن ليست ملكا لهن وهن يصورن الأهواء أكثر مما تحدوه الحكمة.

وفي الحياة الطبيعية لا يمكن أن تسير المركب بقلاعها المفرودة دون أن تكون الاستجابة بين الزوجين متبادلة، فإذا افتقد أحدهما الإحساس

العاطفي الذي يحس به الآخر تعطلت الماكينة وراحت المركب تنحرف نحو زاوية أخرى، ولا شك أن الظروف التي تهيئ الجو العاطفي هي التي تبعث السعادة الزوجية فإذا عجزت هذه الظروف عن تأدية رسالتها وخلقت النكد والشقاء وخلقت النزاع والشغب حلقت معها الكراهية والبغض والحقد الذي يؤدي إلى الانفصال، وتقع المسئولية في ذلك على الرجل وإن كان سوء الحظ لا يخلي المرأة من تحمل النتائج السيئة، فالرجل الفظ الذي يدخل بيته عابسا ويخرج عابسا حاملا الدنيا فوق رأسه، لا شك أن هذا الرجل تستقبله نفس باردة تنفر من مقدمه، وهو إذا قضى حاجته وغادر داره شيعته اللعنات. ويجب على الذي يريد السعادة الزوجية والاطمئنان العائلي أن يبحث عن الهدوء العاطفي، ويجب أن يعلم أن الهدوء العاطفي لا يمكن أن يستقر دون أن تستقر المعنويات ولا يمكن تستقر المعنويات إلا إذا ترفع عن توافه الأمور والصغائر وابتعد عما ينغص النفس ثم أن هناك واجبات تفرضها الحكمة وتوحي بها الرؤية وتدبير الأمور.

فعلى الزوج أن يفهم ميول زوجته العاطفية ويدرس حياتها الماضية وما مر بها من تواريخ وأحداث لها أثر على مستقبلها وبذلك يستكمل الهدوء المنشود، ومن المؤسف أن يكون من الغباوة بحيث لا يفهم مزاجها فتراه يعيش في واد، وتعيش هي في واد آخر دون أن يكون بين الاثنين ما يقرب المسافة بينهما. أعني دون أن تكون بينهما استجابة طبيعية تربط بينهما وتصل بين نفسهما، وإن الذين لا يقيمون وزنا لعواطفهم، لسانهم أشبه بمن يلعب بالنار بينما يحمل فوق رأسه صفيحة من البنزين. فإذا جاز وتزوج رجل امرأة لها ميول القسوة وكانت هي تميل إلى أن تعامل بقسوة انسجم

الرباط بينهما وعاشا في سعادة وهناء. وإذا تزوج رجل مخنث بامرأة مسترجلة عاش معها أيضا في وفاق، كذلك الشأن إذا تزوجت امرأة تميل إلى القسوة من رجل يميل إلى أن يعامل بقسوة ازدهرت الحياة بينهما لأن السعادة في إرضاء النفس.

وهذه قصة فتاة في الثامنة والعشرين مطلقة ومخطوبة إلى رجل آخر تحس بالبرود الجنسي وتميل منذ الطفولة إلى ارتداء ملابس الرجال، وينتابها وجع شديد في ظهرها مع اضطراب وألم في نبضات القلب.

وقال لنا تاريخها بأنها تعودت ارتداء ملابس الذكور منذ السادسة من عمرها بالرغم من معارضة بيئتها في ذلك الحين لهذا الزي، فقد كانت ترى أن في ملابس النساء إذلالا لكرامتها كما كانت تميل إلى مشاطرة الذكور في ألعابهم.

ولم تكن علاقتها بأمها طبيعية فقد كانت تبادلها شعورا باردا، وكانت كفتاة تتألم من ذلك الشعور البارد تتودد عبثا إلى أمها علها تكسب محبتها.

وبلغت السن، ولكن إحساسها في ذلك الوقت لم يكن إحساس الفتاة العادية، فقد كانت تحمل خجلا إذا تحدثت إليها إحدى الفتيات، وكانت هذه الفتاة على جانب عال من التعليم فقد قرأت الآداب منذ سن مبكرة، وقرضت الشعر منذ الصغر ولكن أشعارها كلها كانت تميل إلى تمجيد أنوثة المرأة، وتعرفت إلى بعض الطالبات وهي في القرية وأحبتهن

وقرضت من أجلهن القصائد الطويلة التي تمتدح جمالها. وتقدم إليها الكثيرون يريدون يدها ولكنها لم تشعر بشيء من الجاذبية نحو أي واحد منهم، وتعرفت إلى رجل أحبها وأحبته وتزوجت بالرغم من ثقتها من أن جذوة هذا الحب سوف تنطفئ عن قريب، ومنذ اليوم الأول لم تشعر بالسعادة، وبذلك خيمت سحابة سوداء فوق هذا الزواج، وكللته بطابع الحزن فراحت تعيش في همومها وآلامها لقد كانت تأمل أن يفهم الرجل نفسيتها وميولها ويفهم التيارات العاطفية التي تجتازها. أما وقد عجز عن إدراك النواحي النفسية في أعماقها فقد وجدت في ذلك ما يبشر بخيبة الأمل. ولم تحس المرأة بالغيرة شأن أي زوجة على رجلها، بل بالعكس كانت ترى في ابتعاده عنها ما قد يسعدها ويبعث الهدوء إلى قلبها، وفي الأيام الأخيرة معه راحت تشعر بوجع عنيف في ظهرها.

هذه المرأة لها رغبتان متناقضتان فهي تحب زوجها وتكرهه في وقت واحد وبمرور الزمن برز هذا الانقسام واضحا في تكوينها، وبذلك راحت تعيش بين شخصيتين متناقضتين فهي ترى أن تقبع إلى الهدوء الطبيعي شأن أي امرأة أخرى متزوجة بينما تهدف في الوقت نفسه إلى إشباع الميل الشاذ الكامن في قرارة نفسها، ومن ثم قررت الانفصال عن زوجها حتى ترضي هذا الشذوذ بالرغم من استماتته في التمسك بها.

وبعد ذلك راحت تعيش حرة تكرس كل وقتها للأدب، ثم حدث أن قابلت رجلا فنانا راح يتودد إليها ويتقرب لها ويعرض عليها الزواج، وشجعه على ذلك ما لاقاه من قبول والديها وتعضيدهما له؛ فالآباء يرون

في زواج ابنتهم حماية اجتماعية لها، ولكن هذه الفكرة لم تجد طريقها، فقد جربت من قبل الزواج الناجم عن حب فلم تجده مستساغا، فكيف تجد الآن في هذا الزواج العرضي ما قد يساعدها على الحياة؟! وبذلك ترددت بين قبوله وبين رفضه.

على أن هذا النزاع القوي في نفسها بين الرغبة والكراهية أعطى فرصة للتيارات الذهنية العنيفة. وبالطبع ازداد الضغط القوي على ذهنها وتعرض كيانها إلى التمزيق وراحت شخصيتها تأخذ إليها لون رجل مرة ولون امرأة مرة أخرى، فكان يمر بها عهد من الزمن تحس فيه بإحساس الرجل ثم يخلفه عهد آخر فتحس فيه بإحساس المرأة.

ففي الفترة التي تكون شخصيتها (رجل) تكون جامحة، ترى في زوجها كأنه صديقا لها فلا تميل إلى الاقتراب منه، وفي الفترة التي تكون شخصيتها المؤنثة طاغية يأخذ الميل العاطفي نحوه أشبه ما يكون بلون الميل الجنسي الشاذ. وفي خلال فترة حياتها كرجل تميل إلى الوحدة، تلقي بنفسها كلية بين أحضان عملها. ثم يأخذ الوقت في تنهيد الطريق بالتدريج في سبيل الدخول في عهد الأنوثة وينتابها في تلك الفترة شيء من الميل نحو "السادزم" أي الميل نحو القسوة فتتحدث عن كبرياء وتخرج الكلمات من أنفها وبخشونة وتلقي أوامرها في جفاء.

ولقد أدى الانقسام في شخصيتها إلى النتائج الآتية:

الحنين القوي للغيبوبة، وعدم الشعور بالمسؤولية، والرغبة القوية في التخلص من أحزانها بالانتحار. وهذا أدى بالتالي إلى الإدمان وأدى هذا الإدمان إلى الانغماس في شذوذها، وأدى هذا الشذوذ إلى الانهيار العصبي العنيف.

وحدثتني عن مغامراتها، فقالت بأنها تعرفت إلى أخت زوجها، فعاشت معها فترة زادت عن عام، ثم قطعت علاقتها معها عندما غدرت بها (أخت زوجها) ثم تعرفت على خطيبها، كما حدثتني عن نساء عديدات دخلن حلقة حياتها.

وقالت لي بأن التفكير في والدها يشغل حيزا كبيرا من ذهنها، كما قالت لي بأن غرامياتها ومغامراتها لم تنته عند حد. أما الرباط المقدس فهو آخر اعتبار في نظرها، ولكنها بالرغم من إيمانها بأنها تجرم في حق خطيبها وحق الفضيلة وإيمانها بضرورة الإقلاع عن هذه المخازي التي لا يقرها عرف، بالرغم من ذلك مازالت ترى نفسها غير قادرة على الانصياع لصوت الضمير.

ولقد زاح التحليل النفسي الستار عن النقاط الآتية:

١. أنها هذه المرأة تغرم بالفتية الصغار، فهي ترى أن تكوينهم الجسماني أشبه إلى المرأة منه إلى الرجل، وإن في ذلك التشابه ما يقرب المسافة إلى ذهنها المكدود بالشذوذ الجنسي.

٢. أن هذه المرأة تحن إلى عهد الطفولة، ففي وحدتها وهمومها ما يبعد بها عن هذا العالم الناضج ويرنو بها نحو الماضي وفي ذلك ارتداد إلى عهد الطفولة، فذهنها الحزين يرنو دائما إلى التطلع إلى الوراء.

٣. كانت ومازالت علاقة خطيبها بأمه سيئة وفي هذه العلاقة السيئة ما كان يحلو لها أن تقف إلى جانب الأم فهي بذلك تأخذ إلى نفسها دور الأم كي تحس بأن خطيبها بمثابة ابنها، أو بمعنى تريد أن تأخذ إلى نفسها دور الأم التي تهيم بابنها.

٤. أن هذه المرأة شديدة التعلق بالأم بينما أمها لا تبادلها حبا بحب وقد ارتدت هذه الصورة على نفسيتها فكانت تحب زوجها وتبغضه في وقت واحد، تحبه كاستجابة لعواطف حبها لأمها، وتكرهه لأنها تكره أمها (وكراهيتها لأمها نتيجة اعتقادها أن أمها تكرهها).

٥. أن هذه الفتاة شديدة التعلق بأبيها وقد ازداد ذلك الميل على نفسيتها فبانت شديدة التعلق بكل ما هو شبيه بأبيها فكانت تحب خطيبها لأنه قريب الشبه بأبيها وكانت تبتعد عن خطيبها لأنها لا تحبه.

٦. أن هذه الفتاة مصابة بالشذوذ الجنسي، وهذا الشذوذ هو الذي نفرها من زوجها، على أن حدة هذا النفور قد بردت نوعا عندما حدث وتعرفت إلى أخت زوجها، فقد أحبت زوجها في ذلك الحين، لأنه يمثل قرب المودة بين هذه الفتاة المريضة وبين أخت زوجها.

٧. أن وجع الظهر الذي كانت تحس به، إنما هو مظهر نفساني نتيجة تفاعل هذه الإحساسات مع بعضها وتضاربها، فهو بمثابة احتجاج من ضميرها على تصرفاتها، وهو أيضا بمثابة احتجاج نفسها عليها.

التهيج النفسي

من المعروف أن الانفعالات رد فعل لما يخالج النفس فأنا إذا أحببت امرأة تفانيت في إرضائها فأتودد إليها وأتقرب منها بإذلال كل ما في طاقتي لإسعادها. وبقدر حبي لها بقدر إخلاصي في إرضائها وأنا مهما حاولت أن أخفي ذلك الحب في أعماقي تفضحني تصرفاتي، ولذلك قيل "الصب تفضحه العيون" على أنه أحيانا تلجأ النفس إلى طريقة ملتوية لتخفي كنه ذلك الحب أو تخفي ما تكنه من بغض. فأنت إذا زارك عدوك بالغت في إكرامه وبالغت في إرضائه.. هذه المبالغة في الكرم والإرضاء مبالغة تصنيعية فهي بمثابة ستار الغرض منه إخفاء السجية الطبيعة فالتهور نوع من الجبن والمبالغة في الكرم نوع من البخل، فالذي يبسط يده كل البسط شأن الذي يغلها إلى صدره، كلاهما غير محبوب، والجبان إذا ملك تحكم، والمبالغة في الكراهية هي في الواقع نتيجة الحب، وأنا أحب هذه المرأة، ولكنها لا تبادلني حبا بحب "فأكرهها لأنها لم تقم وزنا لحبي".

جاءني رجل مضطرب النفس وراح يحدثني عن نفسه وعن القلق والتوتر العصبي الذي يعانيه، واستدرجته في الحديث ففهمت منه بأنه كان متزوجا امرأة جميلة طلقها منذ أشهر، فلما عرضت عليه رغبتي في أن أقابل مطلقته حتى أزداد علما بشخصيته رفض في لهفة قائلا بأنها جميلة ومغرية وقد يكون في هذه المقابلة ما يوقعني في غرامها.. عندئذ تأكدت أن سبب

اضطراب هذا الرجل خلافه مع زوجته فهو لم يكن لها ميلا جنسيا دفينا، مما خلق عنده اضطرابا عنيفا، فنصحت له أن يصالحها.

والقسوة رمز للعطف حتى يخفي الإنسان ما يخالجه من شعور فلا يفضح نفسه، فالقسوة الجنسية رمز للحب، ولقد قيل (ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب)، ويغضبن كثيرا من صديقاتهن إذا تدخلن بينهن وبين أزواجهن ليمنعن عنهن ضرا، أو ليتدخلن فيصلحن بين الزوج وزوجته فالرجل الذي يضرب زوجته لا يكون معنى ذلك أن هذا الرجل يبغض زوجته، ولقد حدثتنا كتب القسوة الجنسية عن مدى تعذيب الإنسان لحبيبته حتى يصل أحيانا حد قتلها، فالكونت دي ساد كان لا يثور فيه الميل الجنسي حتى يقتل شريكته، وعلى مشهد الدماء السائلة كان يشبع ميوله الجنسية وكانت وسيلته استدراج النساء الفاتنات حتى يأنسن إليه، فينهال عليهن طعنا بالسكين، وبذلك يشبع ميله الجنسي، وكما يقال عن رجال لا يثور فيهن الميل الجنسي إلا بالدماء، يقال كذلك عن النساء فمنهن من بلغت القسوة فيهن حدا كبيرا، وكذلك هناك من الرجال من هم عكس ذلك فلا يثور فيهم الميل الجنسي إلا عوملوا بقسوة، وبقدر هذه القسوة قدر الحب.

حدثنا كرافت إيبنج عن رجل كان يذهب إلى محلات الدعارة ويأخذ معه سكينا ويطلب من المرأة التي يختارها أن تقطع جلد جسمه بالسكين حتى يتمزق وتخر منه الدماء بغزارة وكانت النساء يرفضن ذلك الطلب خشية أن يقعن تحت طائلة القانون كما كان يأخذ معه قطعا من الزجاج ويطلب من النساء أن يمزقن جسده بذلك الزجاج، وقد أخذ معه مرة

مسمارا وطلب من امرأة اختارها أن تفقأ عينه مقابل أن يعطيها مبلغا كبيرا من المال، ولكنها ترددت إلا أنه ألح عليها ففعلت ما أراد.

وإن من الرجال من يعمدوا إلى إيذاء أنفسهم فيقطعوا أجسادهم بأيديهم حتى يثور الميل فيهم، وإن كتب القسوة مليئة بالأحداث الغريبة التي تصل إلى مرتبة الخيال، والسؤال الذي تسأله هو. هل هؤلاء الذين يميلون إلى القسوة. هل هم أنفسهم قساة أم أن هذه القسوة بمثابة طلاء يحجب وراءه نفسية أخرى تختلف كل الاختلاف عن الحقيقة البارزة أمام المجتمع؟!.

إن القسوة الجنسية مظهر من مظاهر الطفولة التي ارتدت على الكبر فلا بد وأنك واجد في حياة المريض شرخا أدى إلى القسوة. فهي غطاء يخفي تحته العفونة الجنسية، وإن كثيرا من المجرمين الذين يظهرون أمام المجتمع إنما ينطوون بين ضلوعهم إلى الجريمة.

حدث في إحدى القرى الريفية أن تزوج رجل امرأة فلم يتمكن من القيام بواجباته الزوجية كما تفرضها الطبيعة فراحت تعيره بنقصه فثارت فيه عوامل الغيظ فقطعها إربا بسكين، ثم مزق جسدها قطعا ثم ألقى به إلى النار حتى أكلته.

وحدث أن احتالت امرأة مسنة على فتى صغير وفي اليوم التالي ثارت فيه عوامل الكبرياء فأخذ معه سكينا وذهب إليها فاستقبلته بشاشة ظانة بأنه جاء يبادلها الحب ولكنه قابلها بطعناته الحادة. ثم جلس يغرف من

دمها، وإن الإنسان ليعجز في الحكم على هذا الفتى هل هو مجرم؟! وأن ما فعله يؤاخذ عليه؟! أم أن جريمته جاءت نتيجة الثورة النفسية والدفاع عن العرض؟! إن القضاء يختلف لأن الجريمة وقعت نتيجة سبق الإصرار.

ولقد قال لي شاب أصيب بمرض سري أنه تعمد أن ينقل العدوى إلى عشرات من النساء وكان شعوره بنجاح الإصابة ما يشبع طابع الانتقام لنفسه ويشبع نهم القسوة ويقنعه بأن له مقدرة على إذلال المرأة. وكان يلذ له كثيرا أن يعرف نتيجة عدواه لهن ومدى أثرها على علاقته ضحاياه بأزواجهن وخراب بيوتهن، وكم كانت دهشته كبيرة عندما يرى النساء اللائي آذاهن بمرضه يصبحن إماء له، وكان يفرح عندما يعرف أن نتيجة هذه العدوى لهن أدى إلى طلاقهن من أزواجهن وخراب بيوتهن، وكان يرى أن لكل امرأة عاهر لا كرامة لها فلا يجب أن يقيم وزنا لشعورها، ولقد عاش هائما في بحور الفجر والجريمة فبم يستيقظ ضميره إلا بعد أن انتحرت إحدى ضحاياه فانقلب بعد ذلك إلى حمل وديع، إن قسوة هذا الرجل مردها أزمة نفسية ولقد دلتنا التجارب أن كثيرا من مرضى القسوة سرعان ما تثوب ضمائرهم وتخور قواهم لأسباب طفيفة.

تعود شاب زيارة حي العاهرات وكان يحس بالحقد الشديد عليهن، فإذا اختلى بواحدة ثارت فيه روح الكبرياء وراح يؤنبها ويؤاخذها على عملها البذئ، ثم ازدادت حالته شدة فكان يعتدي عليهن بالسباب ثم حدث أنه ثار مرة فصفع واحدة فاستغاثت وحضرت زميلاتها على الأثر ولما رأى حرج مركزه راح يعتذر ويطلب الصفح إلا أنهن صممن على

الذهاب معه إلى البوليس فازداد توسلا لهن، ولم يتركنه إلا بعد جهد، ومن هنا نبتت في ذهنه فكرة الخنوع بعد القسوة فكان إذا قابل واحدة بعد ذلك سرعان ما يلين لها ويعاملها بأدب واحترام كبيرين شأن العبد الذليل.

هذه الأمثلة ترينا كيف نبتت القسوة من الحب، فالإنسان الذي انحرف به الطريق ليقتل عشيقته أو حبيبته إنما يضمر لها أعلى مراتب الحب. وأن هذه العقد النفسية التي تدفع الإنسان إلى القسوة وتبعث على الإحساس بالضعف إنما مردها الماضي منبعها الصغر ففي أرض الطفولة انغرست الحبة التي أصبحت فيما بعد شجرة يانعة.

وقد تعمد النفس إلى وسائل أخرى لنتخذ منها ستارا تختفي خلفه حقيقتها، فمثلا المبالغة في الميل الجنسي العنيف مظهر من المظاهر الطبيعية، ولكنه قد يخفي أحيانا شذوذا جنسيا مقنعا. فالرجل الذي تخلبه النساء يرتمي كل ليلة بين أحضان امرأة، مثل هذا الرجل قد يقال عنه أنه عادي، ولكنه يعاني كبتا جنسيا عنيفا.

حدثني رجل بأنه "زير نساء" لا يكاد يعرف امرأة ويقضي معها وقتا حتى يتركها إلى البحث عن أخرى، وهو يرى دائما في كل امرأة فتنة فيتردد على الكثيرات دون أن يشبع أو أن يستقر، وهو دائب البحث عن المرأة، أشبه بـ "دون جوان" يحمل قلبه في يمينه فيهبه لعديد النسوة اللاتي يقابلهن ثم يتركهن بحثا عن أخريات، والسر في ذلك أن هذا الشاب مصاب بعقدة في نفسه، ففي عقله الباطن عاشت امرأة مثالية كما تعيش على سطح القمر، فهي إله حبه الذي يرجوه قلبه ويرجو أن يشبع نفسه منها، ولكن

هذا الإله لا يمكن الوصول إليه، فراح الرجل ينتقل بين النساء العديدات عله ينسى بإحداهن مثله الأعلى، فلما لم يقدر على النسيان ولم يجد الحب الذي يريد أن يرتوي منه ضرب الأرض بعصاه وسار وراء قلبه بحثا عن ضالته، فكان كما رأيت ما أن يجد امرأة حتى يقترب منها فلا يجد فيها ما يشبع قلبه تركها بحثا عن ضالته.

وكما أن من الرجال من هم مرضى بهذا المثل الحائر في القمر، كذلك من النساء من هن مريضات برجل خيالي يعيش في أذهانهن فيضربن في الأرض بحثا عن ضلالهن.. حدثتني امرأة صارخة الجمال، فقالت بأنها متزوجة من رجل له قيمته من الهيئة الاجتماعية وهي تحبه ولكنها لا تعرف معنى الإخلاص الجنسي، فهي سهلة السقوط لأي إغراء بسيط من أي رجل.. إنها امرأة لا تعرف كلمة "لا" ويعبدها زوجها ويثق فيها ثقة عمياء، ولا يشك أبدا بأنها تخونه، ومن أجل هذه الثقة أعطاها الكثير من الحرية، وتحت ستار هذه الحرية وهذه الثقة العمياء راحت تشبع جنونها الجنسي، وقد يستيقظ ضميرها لفترة ضئيلة من الزمن ليؤنبها على سلوكها الشاذ ولكن سرعان ما يخفت صوت الضمير ليختفي إلى الأبد وتعود إلى الشره الجنسي الذي لا يريد أن يشبع.

وفهمت من تاريخ حياتها بأن طفولتها كانت منحلة ففي سن الثامنة كانت تداعب أخاها الذي كن يكبرها بعامين لتمثل معه مسرحية الزوجة والزوج، ثم ما لبثت أن تعرفت على الفتية الذين يسكنون معها الدار واستمرت صلة الأطفال في الخفاء وقد أضاعت الجوهرة الثمينة وهي في

السادسة عشرة، ثم بعد ذلك وجدت التيار الجارف يدفعها نحو الهاوية وسرعان ما وجدت الطريق معبداً، فالجميع يتمنون لقاءها ويمدون لها أياديهم فلم تبخل بشيء من عفافها عليهم، وتزوجت في الـ٢٠ ومن اليوم الأول لم يكن في ذهنها نية الإخلاص للرجل الجديد، ولقد شعرت بفترة من الحزن فقد ظنت أن الخطوبة والزواج يستلزمانها الإخلاص والوفاء، ومن ثم خافت أن تجد في العهد الجديد الحرمان الجنسي من الرجال الآخرين العاديين الذين خلقهم الله في أرضه، ولكن هذا الخاطر سرعان ما تبدد عندما عرفت كيف توفق بين الزواج وقيوده وبين العبث والمغازلة في الحياة الحرة، فبعد زواجها بثلاثة أيام وصل إلى علمها أن أحد الأطباء "زير نساء " فسرعان ما ادعت المرض وفي الزيارة الأولى لهذا الطبيب وبعد دقائق من الكشف كانت المرأة ترتمي بين أحضانه بينما كان زوجها الأبله يجلس في خارج الحجرة بانتظارها، وظلت فترة من الزمن وهي عشيقة هذا الطبيب ثم انتقلت منه إلى آخر وثالث ورابع... وهكذا صارت تتنقل بين الرجال كما تتنقل النحلة بين الأزهار، وكانت خلال ذلك فريسة الضمير الثائر الغاضب من أجلها فقد عز ضميرها أن يراها ترتمي في الوحل دون أن تقيم وزنا للكرامة فكان يؤنبها ويثور عليها، ولكنها كانت تنتحل لنفسها الأعذار وتزعم أن هذه المرة التي تقدم عليها للشرب من الإناء المحرم هي المرة الأخيرة في حياة المجون لتعود بعدها نقية صالحة، على أن هذه الجرائم لا تلبث أن تجر وراءها جرائم أخرى، وكان عشاقها من الرجال الذين لهم حيثية في الهيئة الاجتماعية، أما الجماعات الدنيا وحثالة الرجال فكانت تأنف منهم، كما كانت ترفض تناول المال أو الهدايا لأن في

قبولها النقود ما يسقط بها إلى مصاف العاهرات بينما هي سيدة محترمة، وقد أصيبت مرة بمرض سري فاعتزمت أن تنتقم من كل رجل تقابله، ولكنها لم تنفذ رغبتها لأن الطبيب المعالج حذرها من الاقتراب من أى رجل حتى لا توقف سير العلاج، وطلبت مني أن أنومها تنويما مغناطيسيا وأوحي إلى ذهنها بالابتعاد عن الرجال. وعلمت من حديثها أن لها أخت متزوجة، فسألتها:

- أو لم تحاول أن تجذبي زوج أختك إليك.

- إنني أحب أختي حبا جما، وبالرغم من استلطاف زوج أختي لي إلا أني لم أحاول أبدا أن أعطي له فرصة الاقتراب مني وأعتقد أنه من العار أن يكون بيننا شيئا.

- وما علاقتك بأختك؟

- إنها فتاة لطيفة ومهذبة، وعندما أكون معها وحدي أشعر بأني قد نسيت كل الرجال، وأعتقد أنك لو قابلتها فلا شك ستأسرك بجمالها ورقتها وبحلاوة حديثها

إن الإنسان عندما يسمع إطنابا من شخص آخر لا شك أن مرد هذا الإطناب صدى لما يختلج في النفس فالمديح هنا معناه أن هذا الشخص الذي يمتدح إنما يتحدث عن شعوره فهو إذا اعتقد أن آخرا سيقع في حب من يمدحه إنما يتحدث عن نفسه، لأنه يحبه فيظن العالم كله يحبه مثله.

وأذكر بهذه المناسبة أني كنت أعالج امرأة اختلفت مع زوجها وطالبته بالطلاق وراحت تستعد للزواج من آخر، وفي معرض الحديث راحت تمتدح طليقها، ففهمت على الفور بأن هذه المرأة تتكلم بلسانها وترى بمنظارها فاعتقدت أن كل الناس تنظر إليه خلال الضوء الذي تسلطه عليه، ومن ثم تمكنت من أن أعرف سبب القلق الذي ألم بها، أعني الحب المكبوت في قرارة نفسها نحو زوجها القديم والعناد الذي تندفع فيه على حساب أعصابها.

وفي حديثي مع الفتاة عن علاقتها بأختها تمكنت أن أدرك مغزى الأفكار الكامنة التي كانت تعيش في قرارتها، فقد كانت هذه المريضة ترى أختها بين حلقة النور حتى خلبتها لها، كانت ترى فيها مثلا أعلى لها فقد تعلقت بها تعلقا شديدا حتى بات من العسير عليها التخلص من ذلك التعلق. فقد نبتت وشبت معها في سرير واحد، فالحب القوي بينهما كان من نبت الماضي تعيش جزوعه في أعماقها، هذا التعلق الشديد بأختها كان له أكبر الأثر على نفسيتها فراحت تلقي بنفسها بين أحضان الرجال كوسيلة للتخلص من هذا الحب بأختها، فكأن هذا الهوس الجنسي الذي تعيش بين جنونه نتيجة الكبت الجنسي العنيف الذي تعانيه، أو بمعنى آخر نتيجة عقدة أوديب أعني عقدة التعلق بأحد أفراد العائلة.

لو جاز لك أن تقع في حب امرأة ثم لا تبادلك حبا بحب أو أنها ضنت عليك فإن شغفك سيزداد لها، وبقدر حرمانك منها يزداد تعلقك بها، فإذا وجدت أن مرت بك في حياتك امرأة تشبهها في الوجه فستحب هذه الجديدة لأنه يبعث إليك بذكريات المحبوبة الأصلية، فإذا مرت بك

امرأة ثالثة تشبهها في تكوين الجسم فستحبها أيضا لأن فيها شبه بالأولى أيضا، وإذا مرت بك رابعة تشبه الأولى في الحديث والفكر فستغرم بها، وهكذا كلما مرت بك امرأة بها ولو قليل من أوجه الشبه بصديقتك الأولى تنال منك القبول. في الواقع أنت لم تحب هاتيك النسوة وإنما أنت تحب امرأة واحدة هي الأولى التي خلبتك اللب، وما هاتيك النسوة مجتمعات إلا عبارة عن امرأة واحدة بمثابة بديل لحبيبتك الأصلية.

حدثني شاب عن نفسه مريض بالشره الجنسي وقال لي أن كل امرأة تأخذ في ذهنه مكانا ولا هم له إلا البحث عن النساء وكان نتيجة ذلك الجنون الجنسي أن تأخر في عمله وفي إنتاجه وترقياته وراحت تهدده الإدارة التي يعمل بها بالفصل، كما اعتلت صحته وبات أقرب إلى الشبه بالمريض بالسل، ولقد طلب مني أن أنومه مغناطيسيا وأوحي إليه بكراهية النساء.

هذا الشاب أشبه بدون جوان؛ فدون جوان رجل حمل قلبه بين يديه وراح يقدمه لكل امرأة تقابله دون اعتبار لمركزها الأدبي ودون اعتبار إلى جمالها، فالمرأة في نظره امرأة تشغل من ذهنه حيزا.. ويعتقد البعض أن دون جوان عاش شبيها بالطائرة ينثر الحب في كل مكان يقابله ولكن الواقع أن دون جوان عاش بلا عش فهو كالطائر الذي فقد عشه فراح يحلق في السماء فإذا رأى وكرا حط عليه ولكنه سرعان ما يكتشف أنه ليس شيئا فلا يلبث أن يهجره بقلب حزين.. إن دون جوان يحمل في ذهنه امرأة خاصة وهو دائب البحث عنها دائب الترحال من أجلها فإذا قابلته نساء عديدات تفرس فيهن فإذا لم يجد بينهن ضالته تركها ورحل.. كذلك الشأن في هذا الشاب المريض أنه دائب البحث عن امرأة تعيش في ذهنه وامرأة

بالذات فإذا قابل واحدة عرج عليها ليرى هل هي التي ينشدها ثم يتركها ويرحل إلى حال سبيله للبحث عن امرأته.

حدثني تاريخ هذا الشاب بأنه كان يعيش في طفولته بين أحضان أمه فكانت ترعاه وتهتم به فلما بلغ السن قابل امرأة عرضا من بنات الشوارع وهام بها حبا وأراد الزواج منها، ولكن أمه وقفت في طريقه واعترضت عليه أن يبني بامرأة لا تناسب كرامته، ولكنه غضب وأصر على الزواج على أنه لم يتمكن من إتمام فكرته لاعتماده ماديا على أمه، وكانت النتيجة أن أصيب بصدمة فتركته الفتاة وثارت نفسه على أمه لوقوفها في طريق سعادته فهجر دارها وراح يعيش في خصام بعيدا عنها.. وحاولت أمه أن تسترضيه فقد كان وحيدها، ولكنه أنف العودة وأخذته عزة الكبرياء وظل في خلافه معها واضطرته لقمة العيش لقطع دراسته وقبول وظيفة صغيرة بإحدى الشركات وكان في شظف الحياة معه وفي التعب الذي يلاقيه في الحصول على الحياة ما زاده مقتا على أمه، فقد رسخ في ذهنه أن أمه سبب نكبته، وبذلك تعمقت الكراهية في قلبه ولم يعمر هذا الحب طويلا في قلبه فسرعان ما هجر فتاته هذه كما هجر الأخرى من قبل وراح يعيش طليقا يعطي قلبه لكل فتاة يقابلها ثم ساءت حالته وحل به الاضطراب.

هذا الفتى يحب أمه حب العبادة فهي ترسخ في قرارة ذهنه صورة مثالية للكمال الذي يشع النور، أما خصامه معها فمرده الحب الشديد، فهذه الكراهية التي يظهرها لأمه إنما هي عربون الحب القوي فهو شديد

التعلق بها ولكنه اتخذ من الكراهية سياجا يحول به دون الإقدام نحوها وكان حبه للمرأة بمثابة تهديد لأمه واحتجاج عليها فكأنه يشك في حب أمه له، وكأنه يريد أن يغيظها بحبه لامرأة من عرض الشارع حتى ترضخ له؛ فحبه لبنات الشوارع لغة تحمل معنى الإنذار لأمه، أما ارتماؤه بعد ذلك في أحضان النساء الأخريات فالغرض منه كي ينسى حبه العميق لأمه.

وتحدث عن أمه فقال أنها مخطئة في زواجها من رجل آخر بعد وفاة أبيه، وكان يجب عليها أن تحافظ على قداسة أبيه فلا تمرغ نفسها في التراب وتدوس على كبريائه وكبرياء أبيه، فلما أفهمته بأن زواجها شرعيا وأن التقاليد والأديان تبيح زواج الأرمل أبى الاقتناع بما أقول.

هذه القصة صورة ناطقة عن عقدة أوديب أو بمعنى آخر عقدة التعلق بالأم، ففي ذهن الطفل الصغير كانت أمه كل شيء، وكان ينافسه فيها أبوه، وكان يجد الطفل في شجار أمه مع أبيه متعة وراحة، فقد فسر له ذلك الشجار بأن عواطف أمه كلها بعيدة عن أبيه وأنها له، فلما مات الوالد وأصبح الولد وحيدا وجد في ذلك فرحة الأمل من أن أمه هي كل شيء له، ولكن هذا الأمل سرعان ما خبا بزواج أمه فقد تأكد أنها لا تكن له الإخلاص فخاصمها وكرهها وابتعد عنها وراح يضرب في الأرض بحثا عن امرأة شبيهة لها لتشبع عواطفه فكان يرمي بنفسه بين أحضان أول امرأة تقابله ظانا أن عواطفه قد تجد استجابة إليها، ولكن سرعان ما يخف الحب لأن المرأة التي معه عجزت عن إشباع عواطفه فيتركها إلى ثانية ثم إلى ثالثة ورابعة وهكذا... وهو في سيره وتسياره أشبه بالتائه الذي يضرب في صحراء فيبدو السراب أمامه لونا براقا يجذبه فإذا أتاه لم يجده شيئا فجلس آسفا حزينا، فهو

يبحث عن امرأة، وامرأة بالذات، وهي أمه؛ فكأن النفس عمدت في هذه القصة إلى أن تظهر هذا الشاب في مظهر المتتبع خطا النساء الباحث عنهن ليخفي حقيقة الواقع، وهو الحب العميق للأم، وزادت إمعانا في ذلك لتخفي فغظت هذا الحب بسياج من الكراهية للأم حتى بدت الحقيقة أبعد الأمر إلى ذهن هذا المريض.

وقد تعمد النفس في حالات الكبت الشديد إلى التفريج عن رغباتها بالبحث عن منفذ، فمثلا المصاب بعقدة أوديب الشديد التعلق بأمه، تحاول النفس أن تقرب له امرأة فيها شبه من أمه كتعويض، وفي هذا ما يفسر لنا حب كثير من الشاب في الزواج بنساء أكبر منهن سنا أو يتعرفوا بنساء متزوجات ولهن أولاد، فالمرأة في هذه الحالة تكون بمثابة الأم وأولادها بمثابة الإخوة وزوجها بمثابة الأب، وفي كثير من الصدمات العصبية تتسامى النفس عندما تعجز في الوصول إلى أغراضها، تتسامى فتتجه ناحية الفنون كالشعر والموسيقى والرسم.. الخ، وأنت إذا تتبعت حياة الكتاب والروائيين والفنانين وجدت قصة دامية فتترفع النفس إلى المصاف الفلسفية فتزهد في الحياة وتترفع عن توافه الأمور، وتعيش في قناعة، ولكن تحت هذا التسامي أو الزهد أو القناعة، نفس مصدومة عجزت عن إشباع مأربها فراحت تعيش في رهبنة، وأنت إذا أزحت الستار عن حياة هؤلاء المتصوفين وجدت في أعماقهم شرخا نفسيا غائرا في صلب حياتهم.

الانحرافات الجنسية

إن الكبت هو مرد جميع الانحرافات الجنسية، فالكبت أشبه بإناء محكم الغلق مملوء بالماء ومن تحته نار . فإذا لم يجد مخرجا انفجر، أو أشبه بماء يجري في قناة أصابها العطب فانسدت في مجراها، فيطفح الماء على السطح ويغمر المكان . فإذا لم تجد الحياة الطبيعية مجراها السليم انحرفت الآية وأتت نتائج عكسية، فإذا بلغ الشاب السن وقيل له بأن النساء مجلبة للأمراض السرية ومضيعة النقود والمال، انحرف به الطريق إلى العادة السرية وراح يمارسها، فإذا قيل له أيضا بأن هذه العادة إثم وشر تؤدي بصاحبها إلى السل والجنون أقلع عنها ليسلك الطريق نحو الشذوذ.. فإذا قيل له أيضا بأن الشذوذ مرض اجتماعي خطير يجرد صاحبه من عوامل الرجولة ويؤدي إلى التدهور الخلقي والاجتماعي والمعنوي أقلع عنه، ولكن سرعان ما يصاب بنكسة تؤدي إلى التوتر العصبي والانهيار النفسي ويجب عليك عندما تهدف إلى نصيحة مريضك، يجب ألا تخيفه عن شرور الأمراض التي يتعرض لها دون أن ترشده الطريق السليم، وإلا كان شأنك شأن الذي يحذر الناس من استنشاق الهواء لامتلاكه بجراثيم الشلل أو الغازات السامة فالحقيقة العلمية تدعو هؤلاء الذين يمتنعون عن مزاولة رذائلهم أن يقدموا العلاج لأن النصيحة دون علاج قد تزيد المريض تمسكا بدائه كالطفل الذي يعبث بكوب من الزجاج ويصر على التمسك بها عندما تلح عليه في أخذها من يده حتى لا تسقط منه وتتحطم فكأنك

بوسيلتك هذه تزيده عنادا في التشبث برأيه والأولى أن تقدم له كوبا آخر كبديل للكوب الذي تريد أخذه منه والضرب على ذهن المريض قد ينقلب إلى عكس الغاية المقصودة.

فالمصاب بالشذوذ الجنسي الذي عمق به المرض، لا يجدي فيه النصح، بل بالعكس قد يزيده حدة فيتمادى في دائه.

ومرد الانحرافات الكبت، ومرد الكبت العوامل العديدة التي رسخت في عهد الطفولة.

قال لي مريض بالشذوذ الجنسي، أنه إذا تعرف إلى امرأة انتابه قلق شديد وعصبية، أما إذا تعرف إلى شاب فلا يحس بشيء من هذا القلق وهذه العصبية وأظهر لنا التحليل النفسي أن حياة هذا المريض كانت عادية حتى تدخلت أمه فراحت تخوفه من ضرر الاقتراب من النساء، ومن الأمراض السرية التي تصاحب معرفة النساء، وبذلك سلطت إيحاءا قويا على ذهنه، ومن أجل ذلك راح يعبث به القلق والاضطراب كلما اقترب من المرأة، وجاءني مريض آخر وحدثني عن مخاوفه من النساء ومن أجل ذلك فهو يخشى الاقتراب منهن ويفضل معرفة الذكور.

ففي علاج الانحرافات يجب الرجوع دائما إلى حياة المريض للبحث عن العوامل التي أدت إلى الحالة المرضية أو بمعنى آخر لإزاحة الحجر الثقيل التي يقف أمام الباب النفسي ويسد المسألة الطبيعية، أما الاعتماد على النصح وحده فعلاج مؤقت، وشأنه شأن المريض المصاب بالإمساك

الذي يشعر بصداع من جراء الإمساك لا يكون علاجه بتعاطي الأسبرين، لأن الأسبرين يخدره لفترة، فإذا ذهب مفعوله عاد الصداع إلى أشده، والعلاج الطبيعي هو البحث في منبع الداء نفسه فتعطي المريض ملينا ليزيل ما به من إمساك، كذلك الشأن في الصداع المسبب عن ضغط الدم لا يكون علاجه بالأسبرين، وإنما بالبحث عن العلة الأساسية التي أدت إلى الضغط، فإذا نزل الضغط وزال الصداع تحسنت صحته، وليس علاج صداع المريض الذي انقطع عن أخذ المخدر، بإعطائه ما يريد من المخدرات لأن استمرار تناول المخدرات سيؤدي بالتدريج إلى زيادة الكميات اللازمة حتى يحصل المفعول في الدم، ويستدعي علاج الانحرافات إلى البحث في جعبة المريض عن العوامل التي أدت إلى النكسات النفسية.

وثمة لفتة أخرى ونحن بصدد المرض والعلاج، نجد أن لكل فعل رد فعل فيجب الحذر حتى لا يخرج المصاب بالشذوذ من دائه بأنفة ويلقي نفسه بين أحضان النساء في جنون كدفع للذلة ومركب النقص وليثبت لنفسه أن عوامل الرجولة التي ظن أنه افتقدها مازالت حية، وأن الكبرياء النفسي مازال يملأ قلبه، وأن لا أثر عنده للخدش الذي جرح كرامته يوما عندما كان مريضا بالشذوذ؛ فكأننا إذا لم نقدم شيئا للمريض اللهم إلا أننا أخرجناه من مصيبة لنلقي به في داهية، فالمنحرف ناحية الشذوذ شأنه شأن الأبله الذي يعيش عبد الغواني.

حدثني مريض عن حياته؛ فقال بأنه دائب البحث عن المرأة، دائب السعي وراءها، ولقد بلغ شغفه بالنساء حدا كبيرا، وبالبحث عن حياته

الماضية وجدنا فيه شرخا، فقد كان مريضا بالشذوذ الجنسي وكان حذرا في تنكره حتى لا يعرفه أحدا فكان إذا أرخى الليل سدوله غير ملابسه وغير سحنته، وراح ينتقل بين الأركان المظلمة بحثا وراء الضلال، دون أن يعطي أحدا من أصدقائه الشواذ فرصة التعرف على حقيقة شخصيته، فإذا سأله واحد من هؤلاء عن عمله أو اسمه أنكره وادعى لنفسه شخصية متنكرة، ثم حدث أن تعرف على شاب راح يواعده مساء كل يوم فيقضي معه وقتا، وكان هذا الشاب يلح في معرفة حقيقته إلا أن حرصه كان شديدا فلم يجعل له فرصة المعرفة، وبينما الرجل يسير صباح أحد الأيام قابله هذا الشاب عرضا ثم تتبعه حتى عرف حقيقة عمله وراح يهدده بإفشاء سره، ولم يتركه إلا بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال، ثم أعقب ذلك أن أصيب هذا الرجل بشبه انهيار عصبي، ولكنه في الوقت نفسه شفي من شذوذه فكان يأنف من نفسه إذا فكر في محاولة الشذوذ، ثم أرخى ستارا كثيفا على الماضي حجب خلفه كل قصص الشذوذ الجنسي التي عاشها في ماضيه، وبعد ذلك بدأ يرنو نحو الصحة ويسلك الطريق الطبيعي، ثم تحول ليكون عبدا كل امرأة يقابلها.

هذا المريض لم يتخلص تماما من شذوذه؛ فالصدمة التي أصابته كانت بمثابة هزة كهربائية تركته شبه مغمى، فخاف معاودة الشذوذ لما فيه من خطورة وفضيحة. أما ارتمائه بين أحضان النساء فبمثابة حاجز يحول بينه وبين العبور مرة أخرى إلى حقل الشذوذ. على أنه يجب أن يكون معلوما أن الخوف من الشيء معناه الرغبة فيه، فأنا مثلا أخاف أن أقابل امرأة لأني أميل إليها، وأخشى أن أسقط إلى القاع، إن في اللاشعور مراوغات عديدة

يدل معناها على العكس. فالخوف والرعب معناهما الرغبة الجامحة، كما أن الغيظ والحقد معناهما النيل والخنوع فاندفاع هذا المريض في نزواته الجنسية وميله الشديد نحو المرأة يخفي وراءه البغض والكراهية الشديدة لها.

وبمناسبة الحب والكراهية أذكر قصة شاب عصبي المظهر كان يثور إذا رأى امرأة متبرجة تسير في الطريق العام فقد كان يحز في نفسه ويعز عليه أن يرى امرأة لا تقيم وزنا للتقاليد أو الاعتبارات العامة أو الدين، فإذا وجد فرصة لا يتورع من التقدم إليها بنصيحة . وكانت تصرفاته هذه وتعرضه لحريات الناس ما جر عليه مشاكل عديدة. وكان يقدم على أعماله بدافع الدين، فقد كان يرى في نفسه أحد خدام الفضيلة. وفي أحد الأيام بينما كان يسير في الطريق رأى امرأة له بها معرفة بسيطة لأنها تسكن مجاورة لداره وكانت متبرجة، فتقدم منها وتحدث إليها، ثم فهم من حديثها أنها على ميعاد مع خطيبها، فاستشاط غضبا وصفعها على وجهها، فاستغاثت واجتمع الناس، فلما رأى تحرج الموقف وعجز عن تفسير تصرفه، فارتمى في إغماءة طويلة، ولما أفاق واستجوبوه أنكر كل ما حدث منه.

هذا الرجل يعاني أزمة نفسية، فهو ديني للغاية، ولقد قيل أن النساء إثم من عند الشيطان، ومن ثم عاش في حرمان عنيف، وكان يغيظه أن يرى الآخرين يتمتعون بروح الحياة بينما هو نفسه محروم من هذه الروح، ومن ثم أخذته الغيرة على كل امرأة يراها. أما غيبوبته التي راح فيها فقد كانت بمثابة خداع الغرض منه التخلص من الإشكال الذي وقع فيه، وهذا الشاب مريض أيضا بالشذوذ الجنسي المقنع، ففي عقله الباطن ميل

للجنس المشابه، وهذا الميل خلق في نفسه الكراهية لكل امرأة، فكان نزاعه مع المرأة لم يكن نتيجة غيرة على الدين كما يظهر، وإنما نتيجة إحساس بالكراهية لها. وفي حالات الإغماءات أو الصرع النفسي، كثيرا ما يكون الدافع له شذوذ جنسي.

ونعرض قصة شاب مصاب بالشذوذ كانت تنتابه فترات من الصراع فيلقي بنفسه على الأرض ويذهب في إغماءة طويلة وكان يخرج مع أصدقائه في نزهات طويلة ليقضي معهم طول يومه خارج الدار. فإذا أراد والداه أن يحولا بينه وبين الخروج انتابته حالات من الصرع فألقى بنفسه على الأرض وذهب في غيبوبة. وهو إذا أعطى ميعادا لأحد أصدقائه ولم يأت في الميعاد المحدد جاءه الصرع، ولا يزال فريسة صرعه حتى يأتي صديقه الذي واعده.

وباستعراض تاريخ حياته وجدنا أن به علة من الضعف العقلي الوراثي فقد كان له خال يشكو من الضعف العقلي، وكانت له ابنة خالة قضت فترة في مستشفى الأمراض العقلية، وكانت أمه تشكو من الهزات العصبية وكانت معدومة الأنوثة لها مظهر رجالي، وكان أبوه يشكو من اعوجاج خلقي وكانت لأخته مظهر الغلام وكانت تعبيرات وجهها تدل على القسوة والعنف وكانت تميل إلى ارتداء ملابس الذكور وممارسة ألعابهم، وكان لبعض أقاربه من الذكور مظهر الشباب المخنث، وكان لهذا المريض نفسه مظهر الأنوثة، فكان صوته ناعما رفيعا وكانت حركاته هادئة لينة وكانت أحاديثه تنطق عن كثير من الخنوع والاستسلام، وكانت حركاته

تعبر عن نعومة كاملة، وأظهر لنا التحليل أن هذا الشاب كان وهو طفل كثير التعلق بأمه فلما شبت سواعده تخلص من هذا التعلق، ولكنه بات أكثر تعلقا بالنساء الكبيرات السن، ثم بعد ذلك نزع نفسه من أمه ومن النساء الكبيرات السن وراح يلقي نفسه بين أحضان الرجال؛ فكان شديد التعلق بأبيه، شديد التعلق بعمه، شديد التعلق بأقاربه الذين يعبرون خطوط الشيخوخة، وهذا التعلق بأبيه أو بالرجال المسنين مظهر من مظاهر عقدة أوديب المقلوبة أو بمعنى آخر مظهر من مظاهر الشذوذ الجنسي المقنع، ذلك لأن المفروض في عقدة أوديب أن يتعلق الابن بالأم والمفروض في مركب إلكترا أن تتعلق الابنة بالأب، وهذان الفرضان مرضان نفسيان، أما أن يتعلق الابن بالأب فالمرض النفسي هنا مركب ومتضاعف ويحمل معه معنى الشذوذ الجنسي المقنع.

هذه الحقائق كانت كامنة في العقل الباطن وغائبة في قاع النفس، وكان لا بد لنا أن نأتي بها من أعماقها حتى تطفو على السطح أمام نظر المريض، وهذه الحقائق ترينا أيضا كيف تغيب أمور كثيرة عن خاطر الإنسان وهي عندما تغيب عنه لا تذهب مع الريح وتضيع في عالم النسيان، وإنما تغيب في عالم اللا شعور المجهول الواسع الكبير ولا بد لشفاء المريض من دائه أن نبحث معه عنه الأمور التي ضاعت منه.

إن الاعوجاج النفسي ليس مرضا يصاحب الفقر، أو هو وقف على الجهلة دون المتعلمين، بل هو شأن كل الأمراض الأخرى يصيب كل الناس على السواء، وهو أكثر إصابة للعقول التي تمتاز بأرستقراطية التفكير

والعلم، أعني الناس الذين لهم ضلع كبير في القراءة والفهم. وهذا المريض الذي نحن بصدده طبيب ممتاز له با ع في مهنة الطب وساعد كثيرين على الشفاء، ولكن للأسف الشديد عجز عن علاج نفسه، ذلك لأن الأمراض ليست وقفا على جماعات دون جماعات، بل أن أي إنسان عرضة لها وعرضة للسقوط في الشذوذ إذا لم يسارع في الوقاية منها وتجنب نواحيها المعدية.

هذا ويجب أن يكون مفهوما أن أمراض الشذوذ الجنسي أمراضا عادية، يجب المبادرة بالتخلص منها، وليس المرض نفسه جريمة، وإنما الجريمة في المصاب الذي يترك نفسه يتحلل رويدا رويدا دون تفكير في العلاج. فالشجاعة الأدبية تقضي على هؤلاء المرضى المبادرة بالعلاج بدلا من محاولتهم نقل عدواهم إلى أبرياء جدد وإصابتهم بداء الشذوذ، وأخيرا يجب أن يكون معلوما أن معظم هذه الأمراض مردها الطفولة وأن جذورها العميقة في القاع تمتد إلى الماضي البعيد، ومع أن كثيرا من أمرض الشذوذ ظهرت أعراضها في الكبر إلا أن هذا لا يمنع القول من أن البذور نبتت في عهد الطفولة.

وإذا كانت أمراض الشذوذ الجنسي مظهر من مظاهر الانحرافات الجنسية، فهناك مظاهر أخرى كالغيرة العنيفة التي تؤدي في كثير من الأحايين إلى مشاكل عديدة قد تجر معها الجريمة؛ فالغيرة مظهر الحب وهي ضرورة للمحافظة على التراث والدفاع عن الأسرة، ولكن إذا زادت عن

حدها أصبحت مرضا، وتحمل معنى الضعف والخور أكثر مما تحمل معنى المروءة والإقدام، وهي مظهر من مظاهر الشذوذ العنيف.

أعرف امرأة متزوجة من طبيب محترم، تحبه حبا شديدا، ولكن تظل حياتها سحابة قائمة من الشك والقلق، تقلب سعادة دارها شقاء؛ فهي شديدة الإحساس نحوه، شديدة الغيرة عليه، ومع أنه مخلص لها إلا أن الشك يخامر قلبها نحوه، ففي هذه الخطوبة كانت دائبة التلهف على أخباره تتجسس عليه تخشى أن تكون له علاقات غرامية بامرأة أخرى. ولما تزوجته ازدادت حالتها شدة، فكان إذا تأخر عن ميعاده راحت تظن به السوء وتنسب تأخره إلى مواعيد فتيات أخريات، وكانت إذا أتته سيدة مريضة واختلى بها ليوقع الكشف الطبي عليها راحت نار الغيرة تأكل أحشاءها، وإذا خرجت معه إلى الطريق العام وذهبت معه إلى مطعم أو مقهى عام وحانت منه التفاتة إلى سيدة عرضا أحست بالغيرة في أحشائها وشعرت بآلامها، وإذا ذهبت معه إلى السينما راحت تتابع نظراته لترى مدى تأثير فتيات الشاشة عليه.

وبالاختصار وضعت هذه الغيرة القاتلة على عينيها نظارة سوداء؛ فباتت ترى الأشياء أمامها باللون الداكن الحزين، ولقد امتدت جذور هذه الغيرة حتى راحت تشمل كل شيء يحيط بها، فق امتدت إلى ابنتها، فراحت تغار منها ومن جمالها الذي يقف أمامها يتحداها ويظهرها امرأة هرمة، وامتدت الغيرة أيضا إلى زوج ابنتها فراحت تغار عليه وتخشى أن يكون له علاقة سيئة بفتيات أخريات غير ابنتها، ما قد يعرض ابنتها إلى

المصير المؤلم الذي تعيش فيه، وهي تغار على الخادمة، فتخشى أن يتطلع إليها زوجها أو زوج ابنتها، ثم تخشى عليها من رواد الطريق، وتخشى أن تكون لها قصصا غرامية مما قد يعرض سمعتها للخطر، وبالاختصار تغار من كل شيء.

هذه هي القصة الحزينة لامرأة شقية أضعها أمام القارئ ليحكم بنفسه عن قيمة الخزعبلات الصاخبة التي تعصف بمريضة وتصفر في عقلها كما تصفر الريح في بيت خرب فتقلب سعادتها نكدا وهناءها شرا، وإني لأتساءل عن معنى هذه الغيرة التي لا أساس ولا سبب لها؟! الواقع أن مرد هذه الغيرة يرسخ في العقل الباطن حيث يكون الشر، فهذه المرأة تشعر في قرارة نفسها بالشذوذ الجنسي وهي في الواقع لا تغار على زوجها من مريضاته وإنما تغار على المريضات من زوجها، إنها تأخذ إلى نفسها جانب الرجل وتضع نفسها موضع الرجل الذي يميل إلى النساء، وتبعثر غيرتها على كل النساء اللاتي يحطن بها فتنظر إليهن بعينين شرهتين لتشبع النهم الجنسي في قلبها وعندما تعجز عن إرواء هذا الجوع الحائر في نفسها وتكبت نزعاتها الشرهة في قلبها تنعكس بالغيرة عن وضعها الطبيعي في ذهنها تزعم بأن غيرتها على زوجها وهي في أعماقها تكره زوجها لأنها تكره الرجال وكراهيتها للرجال لأنها تميل إلى الشذوذ الجنسي المقنع، وكراهيتها لزوجها لأنها ترى فيه الشخص الذي يقف أمامها ليحول بين إشباع نهمها الحائر نحو النساء، ونجد في الغيرة السلاح المنطقي الذي تسلطه على زوجها فتعذبه به، وهي تأسف لكراهيتها لزوجها، فقد كانت تتمنى أن تعيش شأن كل امرأة في حب مع زوجها، ومن ثم راحت تحمل نفسها

مسئولية هذا الكره لزوجها فكرهت نفسها عقابا لها، ومن ثم ضاق ذهنها بالحياة فباتت أنانية تحب نفسها وتريد من ابنتها أن تكون كل عواطفها (ابنتها) لها وحدها لا يشاركها معها أحد ولكن وجود زوجها (زوج ابنتها) على المسرح ما جعلها تحقد عليه فكرهته هو الآخر.. هذه الانفعالات النفسية والغيرة التي لا تقوم على أساس عادي حطمت حياتها العذبة شأن هذه المرأة شأن كل امرأة خربة الذهن يخيم في رأسها العنكبوت عندما تتدخل في حياة ابنتها الخاصة وتلقنها الكفر به وتلح عليها في هجره، فالدافع الأكبر الذي يدفع (الحماة) في التدخل بين الابنة وزوجها هو إحساسها بمركب النقص عندما ترى ابنتها في الربيع تتمتع بالحياة بينما هي على نهاية الخريف تقترب من الشتاء لا تحس الدفء، فينتاب الحماة الجنون فلا تجد وسيلة أمامها إلا أن تخرب بيت ابنتها السعيد حتى تتساوى ابنتها معها في الشقاء وتعيش (الابنة) في حرمان من السعادة كما تعيش الأم.. إن مثل هذه الغيرة تقوم على كثبان خربة من ذهن سقيم.

وهناك قصص عديدة عن الغيرة الجنسية التي تقوم بمثابة ستار يحجز خلفه ألوان الانحرافات المختلفة، فقد مرت على تجاربي امرأة في ربيع الحياة صارخة الجمال – متزوجة ولها أطفال – راحت تحدثني عن غيرتها الشديدة على زوجها، والغريب في حديثها أنها هي شخصيا لا تقيم وزنا للرباط المقدس ولا بشيء من الكرامة فهي دائمة الصخب دائبة العبث، فإذا خرج الزوج لا تتورع بأن تدعو صديقها إلى الدار، وكان مما ساعدها على التمادي في الاستهتار ببيت الزوجية أن الزوج نفسه مغفل، أبله يعتقد فيها ويثق بها، والغريب أيضا أن أصدقاءها من الحثالة والطبقات الدنيا فالرجل

الذي يستثيرها هو الرجل التافه الذي لا حيثية أو مركز له، أما الرجل المحترم الذي له حيثية في الهيئة الاجتماعية فلا قيمة له في نظرها. هذه المرأة لا تعرف معنى الإخلاص لزوجها ولكنها تصر على انتزاع الإخلاص من زوجها وينتابها الخوف والشك وسوء الظن، ومن أجل ذلك راحت تعيش في ضلال الغيرة القاتلة دائبة الشجار معه تخشى أن يخرج أمره من يدها.

ولقد أزاح التحليل النفسي الستار عن هذه المرأة فأرانا نفسية خربة حقيقتها غير ظاهرها، فهي لا تحب زوجها ولا تقيم له وزنا وتضمر له الكراهية والبغض، وإن هذه الكراهية عميقة لشخصه، وإنها تتخذ من الغيرة وسيلة لتؤرق حياته حتى تشبع طابع الكراهية والغضب التي في نفسها؛ ففي ثورة الغيرة وتحت ستار الحب الذي تزعمه نحوه تخرج نزعاتها المكبوتة التي تعبر عن بغض وكراهية، وهي تتخذ من الغيرة ستار يخفي خيانتها؛ فهذه المرأة تتهادى في أعماق الرذيلة، ولكنها تسارع وتهاجم زوجها البرئ في وفائه لها محاولة بذلك تضليل الحقيقة في كدر الرماد، أما ميولها من النوع الرخيص من الرجال فمرده الطفولة فقد نبتت هذه المرأة في بيئة منحطة فعاشت وهي طفلة بين أحضان الخادمين والخادمات، فلما كبرت انعكست أضواء الماضي على حياة الحاضر فباتت لا تهتم إلا بالجماعات الرخيصة تؤهله هؤلاء الجماعات الدنيا.. وفي قاع هذه المرأة ميل عنيف السادزم أي القسوة والعنف، وتحت ستائر الغيرة تحاول أن تشبع رغباتها القاسية الكامنة.. في قرارة نفسها يعيش الميل للنساء وهي تتمنى أن تتعرف إلى امرأة، وتتمنى لو كان زوجها امرأة حتى تشبع تلك التمنيات في صدرها.

ومن بين ثورة الغضب والانفعال وضيق الصدر من عدم إمكانها إشباع هذا التمني تنتابها الحسرة فتنهال على زوجها شدة وتقريعا، ولا نجد خيرا من الغيرة كي تخفي وراءها كل انحرافاتها.

إن هناك قصصا عديدة عن الغيرة تخفي وراءها قصصا عديدة من الانحرافات، وليست الغيرة بالمعنى الصحيح عربون حب وإنما هي رمز للأنانية الشديدة كما أنها رمز البدائية الأولى ولعل الغيرة أقوى الأسلحة التي يمكن للإنسان تحت ستارها أن يشبع ميوله الشاذة، فالذي يضبط امرأته في موضع مخل ويقتلها إنما هو إنسان مريض بالسادزم، أو بمعنى آخر مريض بالقسوة، وتحت ستار الغيرة يشبع نفسه من منظر الدماء.

وإن كثيرا من الانفعالات النفسية التي تظهر في بيئة العمل مردها الغيرة المكبوتة في النفس، فالرجل الذي يجبن عن مؤاخذة زوجته على سوء تصرفها بينما يرى باستمرار كرامته تنحدر نحو الهاوية ويرى زوجته تتهادى بين براثن الفجر والذلة ويرى بأعينه عشاقها وهم يختلفون عليها، هذا الرجل تثور فيه عوامل الغيرة ولكنه يخشى إظهارها لزوجته لأنه جبان لا يقدر على مصارحتها بما رأت عينيه أو بما يعتقد به قلبه، ومن ثم تنفجر ثورة الغيرة في عمله مع مرؤوسيه ورؤسائه بمظهر الحريص على العمل الجاد في الحق.

وإن كثيرا من العصبيين الذين يثورون خلال أداء واجبهم اليومي، يكون مرد ذلك في غالب الأحيان إلى المنزل وبالتالي إلى الزوجة، أو بمعنى آخر يكون مرد ذلك القلق العصبي وعدم الاستقرار العاطفي، وإن كثيرا

من سيئ الحظ الذين عجزت حياتهم الجنسية عن الحصول على السعادة الزوجية قد أدى بهم المطاف إلى الفشل في الحياة العملية.

جاءني شاب في ربيع الحياة، راح يحدثني عن القلق والاضطراب، وعن التشنجات العديدة التي تصيبه، وقال لي أن هذه التشنجات لا تأتي إلا في أوقات العمل، فيحدث أن يرتمي على الأرض ويذهب في إغماءة تستمر فترة من الزمن، ولقد عرف عنه زملاؤه ورؤساؤه داءه العصبي فراحوا يعطفون عليه ويتسامحون معه في غلطاته، والغريب أن هذه التشنجات لا تأتي له في اللحظات التي يكون فيها خارج العمل.

ولقد أزاح التحليل النفسي أن هذا الشاب يعاني أزمة نفسية حادة، فهو متزوج من امرأة صارخة الجمال وهو شديد الحب لها، ولكن مرتبه ضئيل بينما مطالبها المادية عديدة، ولقد بات شبه واضح له أنها تخونه لتعوض بعض هذه المطالب، ولكنه يخشى مواجهتها ومن ثم راحت تنتابه هذه التشنجات النفسية، حتى تكون بمثابة احتجاج نفسي على رؤسائه كي يرفعوا من مرتبه حتى يسد حاجة زوجته.

وإن قصص الانتحار التي تحدث كل يوم مردها الفشل في الحب فالذي عجز عن الحصول على المرأة إنما يقدم على الانتحار وكأنه يريد بذلك أن يحمل حبيبته مسئولية وفاته، فلو أنها انصاعت له لما أدى به الطريق إلى الوفاة.

أعرف رجلا أصيب بالكساح فبات غير قادر على مغادرة داره، وكان مرضه غريبا فلم يظهر الكشف الطبي أي ضعف في تكوينه الجسدي

مما يكون له أثر على دائه. وقد أزاح التحليل النفسي الستار بأن هذا الرجل يشك في زوجته ويعتقد في خيانتها له، فلعبت العوامل النفسية دورها لتقعده عن مغادرة الدار كي تتاح له أكبر فرصة لحراسة زوجته. وهذا الكساح النفسي، وهو أشبه بالشلل النفسي الذي يصيب الجنود في ميادين القتال كي تتاح لهم فرصة الإعفاء من الجندية.

جاءني شاب مصاب بشبه شلل في يديه الاثنين، لا يقدر أن يثنيهما، وكان يسير بيديه مفرودتين إلى جنبه وإذا حاول أن يثنيهما أحس بألم شديد، وقد أثبت الكشف الإكلينيكي يخلو هذا المريض من الأمراض الجسدية، وقد أرانا التحليل النفسي أن هذا الشاب دائب على ملازمة العادة السرية بكثرة كبيرة ثم عرف بعد ذلك مضارها، خصوصا وقد ألم به اصفرار وهبوط في القلب فحاول أن يمتنع ولكن الرغبة في العادة كانت تحدوه دائما للاستمرار على مزاولتها، وكان هذا الشلل النفسي في يديه بمثابة وسيلة أوحت بها النفس حتى يقف ضد رغبة الشيطان.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن العادة السرية أقول أن ضررها ينحصر في الصراع النفسي العنيف والتردد الذي يلاقيه المريض قبل إتيانها، وفي الندم الشديد الذي يعقب هذه العادة، فكثرة الحديث عن العادة وعن أضرارها خلق عند المريض وهم قوي بأن نهايتها الجنون، وهذا الوهم هو المرض نفسه، وهذا المرض انحراف نفسي عنيف قد يؤدى فعلا في كثير من الحالات إلى الجنون.

حدث لأحد الجنود أن راح يزاول العادة السرية بمعدل كان يزيد على عشرين مرة في اليوم، وكان غرضه من ذلك أن يصاب بالسل أو الربو أو الهزال أو أحد الأمراض حتى تعفيه من الجندية، وفعلا أصيب هذا المريض بكساح في قدميه، ولكن لم يكن للعادة السرية الفضل في ذلك، فالفضل كله للإيحاء القوي الذي سلطه على نفسه أن يمرض، ولكن حدث بعد ذلك أن انتابت المريض موجة من الاضطراب الذهني العنيف، وهذه الموجة لم تكن نتيجة إتيان هذه العادة وإنما كانت نتيجة الصراع النفسي العنيف الذي كان يلاقيه المريض من الاستمرار على مزاولة هذه العادة أو الإقلاع عنها أو بمعنى آخر بين الاستمرار في الجندية وما فيها من خطورة على حياته وبين التعرض لمرض السل.

جاءتني امرأة متزوجة من أحد الأطباء، وكانت شديدة القلق والانفعال، وحدثتني عن أحزانها، فقالت بأنها عاشت فترة من الوقت وهي سعيدة بحياتها فقد دأبت على العادة السرية منذ الطفولة، ولما تزوجت لم تتمكن من التخلص منها فكانت تأتيها في غفلة من زوجها، وكانت قانعة بحالتها حتى وقع في يدها كتاب يتحدث عن أضرار العادة السرية فانتابها خوف شديد، وراحت تقاوم هذه العادة حتى أقلعت عنها ولكنها أحست باضطراب عنيف في حياتها، وكان الاضطراب يزداد بها عندما تضغط عليها العوامل النفسية لترغمها على إتيانها.

هذه المرأة واقعة تحت عوامل نفسية، فهي تشعر بالبرود الجنسي نحو زوجها، وتلجأ إلى العادة السرية كمخرج لها من برودها، ولكن حديث

الكتاب عن ضرر هذه العادة السرية جعلها تقلع عنها ومن ثم وقعت في حيرة لأنها افتقدت هذا المخرج النفسي الذي كانت تلجأ إليه، ولقد ازدادت حيرتها عندما اشتد بها الميل نحو هذه العادة بينما وقف الخوف يمنعها من إتيانها وكان في هذا التشاد النفسي العنيف ما أدى بها إلى السقوط في الهوة العصبية.

وأضع أمام القارئ قصة أخرى عن أثر النكسات النفسية التي يكون مردها الكبت الجنسي الناجم عن الإقلاع عن العادة السرية، وهذه القصة لفتاة تعاني أزمة نفسية فهي إذا جلست إلى جوار رجل أو امرأة أحست بشبه قيء واضطراب نفسي، ولا يزال يزداد بها الأمر حتى يبتعد عن جوارها هذا الرجل أو تبتعد هذه المرأة، وإذا ذهبت إلى إحدى الحفلات العامة مثلا وتكاثر حولها الرجال وراحوا يتحدثون إليها سرعان ما تحس بحالة القيء الشديد، وإذا ذهبت إلى المطاعم العامة وتصادف أن جلس إلى جوارها أحد الرجال سرعان ما تحس بحالة القيء فتظل تغالبه حتى تخور قواها فتهم مسرعة إلى دورة المياه فتتقيأ طعامها الذي أكلته ثم تجلس وهي في شبه اصفرار منهكة يتصبب العرق من جبينها.

وقد أزاح التحليل النفسي الستار، فأرانا امرأة نبتت في بيئة محافظة لفتتها الفضائل الدينية، وبذلك نمت كارهة للرجال، وهذه الكراهية للرجال فتحت أمامها باب العادة السرية فوجدت فيها الهدوء والاستكانة حتى عرفت مضارها فأقلعت عنها، ثم رأت أن تتعرف إلى بعض الرجال ولكن التعاليم الدينية التي شبت عليها راحت تعارضها، وبذلك وقعت بين صراع

عنيف الرغبة والرهبة: الرغبة في إشباع الغريزة الجنسية كنداء طبيعي لنضوجها، والرهبة من الدين حرم الانحدار نحو الرذائل فكان القيء بمثابة احتجاج كامن من قلبها على وجودها بصحبة رجل.

فالقيء بمثابة اشمئزاز ونفور من الرجل، والقيء معناه أن تفرغ ما في بطنها وهو عقاب سماوي شأنها في ذلك ما يحدث عند المسيحيين من الاعتراف إلى القسيس، أعني إفراغ ما في قلبه، فهي تفرغ ما في بطنها من فضلات كما تفرغ ما في قلبها من مساوئ، وهي تخشى أيضا السقوط في هوة الشذوذ الجنسي، ومن ثم راحت تحس بنفس هذه الآلام المعوية وبالميل إلى التقيؤ إذا اقتربت منها امرأة وإن كانت هذه الآلام وهذا الميل أخف حدة عنه من الرجل.

وأنتقل ونحن على بساط البحث في الانحرافات الجنسية إلى البرود الجنسي في المرأة، لنجد أنه نتيجة الكبت والحرمان وأنه نتيجة شرخ عنيف في النفس، فالمرأة الشابة التي تتزوج عجوز لا تجد في هذا العجوز استجابة لعواطفها لاختلاف السن واختلاف التفكير فتعيش في دنيا غير الدنيا التي يعيش فيها هذا الرجال، أو معنى آخر تعيش محتجبة عنه في برود جنسي، والشخص الفظ الغليظ المعاملة لزوجته الذي يعمد إلى السخرية منها والتحقير منها، مثل هذه المرأة تعيش بقلب لا يضمر لزوجها الحب، ومن ثم تنعكس هذه الكراهية على عواطفها ونزعاتها الكامنة فتضن على زوجها أو بمعنى آخر تأنف منه فلا تستجيب لميوله ونزعاته كعقاب له عن سوء معاملته لها.

أذكر قصة امرأة مصابة بالبرود الجنسي، تحب زوجها حبا عنيفا ولكنها لا تستجيب لعواطفه، وبالبحث في ماضي حياتها وجدنا أن زوجها عيرها بقبح ساقيها ليلة الدخلة أحست منذ تلك اللحظة بثقل أنفاسه؛ فقد كان للملاحظة البسيطة التي أبداها زوجها أثر كبير في نفسها، ذلك لأنها اعتبرت هذه الملاحظة بمثابة إهانة جرحت كبريائها، مما جعلها تعتقد أن زوجها فظ لا يحسن الحديث ولا يقيم وزنا لشعور الناس فمن الخطأ الاستجابة لعواطفه كعقاب له.

وجاءتني امرأة متزوجة تبدو عليها علائم الحيرة والاضطراب، وراحت تحدثني عن نفسها بأنها إذا رأت بقعة من اللون الأحمر تحيط بها ألوان بيضاء أصابها اضطراب شديد وأحست بتقيؤ وشبه إغماء، على أن هذا القيء والإغماء لا يتأتى إلا إذا كانت بصحبة سيدة، وقد أظهر التحليل النفسي أن زوج هذه المرأة أحس بالعنة ليلة الدخلة فلم تسعفه رجولته، ولكنه خشي أن تفضح الخادمة أمره في صباح اليوم التالي، فسكب قطرات من الحبر الأحمر على الملاءة البيضاء ليوهم الخادمة أنها قطرات من الدم، ولقد ارتد هذا الدافع اللا شعوري على نفسها فباتت تخشى الألوان الحمراء التي تحيط بها ألوان بيضاء، وكأنها بذلك تخشى صباح ليلة الدخلة عندما خافت الخادمة من اكتشاف الحقيقة، ويزداد خوف هذه المرأة إذا كانت بصحبة امرأة أخرى في ذلك ما يقرب الشبه إلى ذهنها ويعيدها إلى تلك التجربة القاسية، أو بمعنى آخر هذه الألوان الحمراء والبيضاء ارتداد بها إلى لحظة الضيق ليلة الدخلة، إلا تفصح لنا هذه القصة بوضوح قوة الصدمة التي تصيب المرأة ليلة الدخلة؟ وألا يدفعنا ذلك إلى الجهر بأن

مستقبل الزوجة وحظها ينمو في تلك الليلة؟ ففي هذه الليلة تقرأ المرأة عنوان الكتاب الذي سيكون دستورها الذي نعيش عليه، وأن الرجل الفظ الغليظ القلب الذي عدم الليونة لن يجدي بعد ذلك طلاوة أسلوبه وحسن حديثه ومعاملته فيما بعد، ولن يشفع له أي نوع من الرقة يقدمه لها بعد ذلك إلى زوجته.

والمؤسف أن الكثير ينظرون إلى المرأة كقطعة من (الشيء) الذي لا قيمة لعواطفه، وهذه النظرة خاطئة فأنت إذا تغاضيت عن عواطف شريكتك فكأنك تتغاضى عن حقيقة البشرية، فالسعادة الزوجية لا تكمل إلا باستجابة الطرفين فإذا انعدمت هذه الاستجابة، انفتح السبيل إلى هذه الخلافات العديدة مما يؤدي إلى الفراق، والعاقل هو الذي يفهم حقيقة شريكته فلا يجعل لها سبيلا إلى البرود الجنسي، والمرأة الباردة هي في الواقع امرأة (حارة) ولكنها كبتت شعورها الجنسي وأرادت إخفاءه تمنعا أو أن عواطفها الجنسية خانتها فعاشت دون أن تحس العاطفة الغريزية، أو بمعنى آخر عاشت في حرمان.

وثمة لفتة أخرى إلى البيئة والتقاليد والأوضاع نجد أن المجتمع ألقى على المرأة عبئا ثقيلا، ثم حجبها وراء ستار فجعلها تستكشف حياء في إظهار شعورها وإحساسها، وأن الكثير من الفتيات يفضلن أن ينعتن بالبرود عن أن يقال عنهن أنهن حارات ملتهبات، ومعظم اللائي يظهرن البرود إنما اللائي في قلوبهن شرخ، هذا الشرخ جعلهن يكبتن شعورهن حياء واستخفارا.

هذه قصة سيدة في ربيع الحياة تشعر باضطراب عصبي حدثنا تاريخها بأنها نبتت في بيت محافظ، فلم تعرف شيئا عن الأمور الجنسية، تزوجت في سن مبكرة، ولكنها فزعت من زوجها منذ الليلة الأولى، فعاشت بعيدة عنه، وكان كلما اقترب منها أحست بالقشعريرة وبخوف، وأزاح التحليل الستار فوجدناها نشأت في بيت ديني محافظ أقام وزنا للاعتبارات والتقاليد وحافظ على الشرف والعفة ووضع في ذهنها أن الجنس جريمة، فلما كبرت راح صدى تلك الأفكار تضرب ذهنها فتبدى لها زوجها وحشا في صورة إنسان، وفي غيبوبة الماضي نست أنها حليلته شرعا، فالإيحاء القديم له رد فعل على نفسيتها.

مجرد أن المرأة لا تحس بالحرارة بين أذرع زوجها لا يعني معنى البرود أو أن المرأة فقدت الشعور بالحياة قد يكون السبب كراهيتها الزوج أو ميل نحو الشذوذ أو العادة السرية أو ميل السادزم أو الماسوشيزم، إلى غير ذلك من الأسباب ما يعجز عنه الحصر ويعجز على الرجل أن يفهمه.

وهذه قصة سيدة في ربيع الحياة تعودت العادة السرية ثم تعرفت إلى فتاة فصادقتها ثم خطبها شاب ولكنها نفرت منه ثم تعرفت إلى فتاة ثم إلى شاب تزوجته ولكنها تركته إلى امرأة تعرفت عليها.. هذه الفتاة تتنازعها فكرتان: فكرة أن تكون زوجة وربة بيت وأم، وفكرة إشباع شذوذها الجنسي العنيف.. وبين هاتين الفكرتين راحت تردد بينهما دون أن تدري ما تفعل.

وأذكر قصة أخرى لامرأة متزوجة في الثلاثين من عمرها ولكنها لا تذكر أنها أحست مرة بنداء الطبيعة، وكان الرجل فظا سيء الخلق والعشرة، تعرفت إلى شاب شاعر أحبته وأحست إلى جواره بالدفء، ولكنها كانت وهي تدعو الشيطان تدعو الله في الوقت نفسه أن ينجيها من الشر الذي تدنس به أياديها وهي تقرب الإثم، فقد كانت تود أن يلين قلب زوجها لتخلص له بدل جنونها مع هذا الشاعر، وبذلك عاشت في حيرة وألم أدى بها إلى الانهيار النفسي.

وإن من أسباب البرود الخوف من المرض، أو الخوف من الحمل، أو الكراهية الشخصية للزوج، أو احتقار الزوج للزوجة أو أهل زوجته، أو الخوف من الناس، أو الخوف من الفضيحة.. كل هذه الاعتبارات تخلق البرود الجنسي لأنها بمثابة أسباب تخلق الاشمئزاز، وبالتالي تؤدي إلى البرود.

وإذا انتقلنا من البرود الجنسي في المرأة إلى أمراض الضعف في الرجال، وجدنا أن هذا الداء كان ولا يزال سببا في خراب بيوت عديدة، وليست خطورة هذا المرض في النقص الإكلينيكي وحرمان الرجل من حق طبيعي، وإنما أيضا في الإحساس النفسي والشعور بالخور والضعف أمام الزوجة، وأن مرد كثير من الأمراض الجنسية إلى هذا الضعف الجنسي والمرارة التي يطويها الرجل في قلبه نحو المرأة، وأن كثيرا من جرائم الخيانة الزوجية مردها العنة، ويزداد موقف الرجل الضعيف حرجا أمام زوجته الخائنة شعوره بالنقص لا يمكنه من مجابهة زوجته الخائنة بالجريمة فيقف

معقود اللسان أمام سلاح الكرامة المسلط على رقبتهما يؤدي إلى الانهيار العصبي..

والضعف الجنسي في الرجل يشبه البرود الجنسي في المرأة مما لا يستجيب لسنة الكون ومرده دائما الكبت فلو أن رجلا يميل إلى أن تعامله المرأة بقسوة، وتزوج امرأة ضعيفة، فإنه يكبت ميله الجنسي ليعيش في حرمان عاطفي عما يجيش بذهنه، ولو أنه تزوج امرأة عنيفة كما كان يرجو لكان أسعد حالا.

قال لي مريض بأنه يميل إلى معاكسة النساء في الطريق العام ويروق له أن يؤذي أسماعهن بكلمات نيابية ما عرضه إلى كثير من المشاكل دون أن يرتدع عن جنونه. وقال لي آخر بأن ما يثيره في المرأة هو طريقة سيرها وطريقة خطواتها، وقد رأى مرة امرأة تسير في الطريق العام فتتبع خطواتها حتى عرف دارها وخطبها إليه، وكان يروق له أن يجلس إلى مقعد وثير ويدخن غليونه بينما تسير هي أمامه جيئة وذهابا حتى ملته وقطعت الخطبة.

وحدثني آخر بأنه يروق له كثيرا أن يلمس المرأة، فإذا سار في الطريق العام وأعجبته واحدة تتبعها حتى تصعد إلى الترام أو تدخل الدار وتعين منها فرصة لمسها، وقد استدعاه ذلك المزاج العجيب أن يسير خلف المرأة مسافات طوية حتى أنه سافر مرة من ميونخ إلى برلين إلى أن حانت منه فرصة لمسها، وبعد ذلك قنع بذلك النصيب وعاد أدراجه إلى بلده، ولقد جرته هذه العادة إلى مشاكل عديدة؛ فقد حدث مرة أن تتبع امرأة في

إحدى الأمسيات حتى دخلت دارها فأسرع خلفها وانتهز الفرصة أن يلمسها على السلم، فصرخت واستغاثت فأسرع بالهرب.

وحدثني آخر بأنه يروق له جدا أن يتصدى لامرأة في الطريق العام ويتعرى أمامها، ولقد جره هذا الميل الخارج على القانون إلى الوقوع في مشاكل اجتماعية عديدة، وقد حدث له مرة أن رأى فتاة أعجبه شكلها فتتبعها حتى دخلت دارها فأسرع وسبقها إلى (العمارة) ثم استدار مواجهة لها وتعري أمامها فاستغاثت وحضر الناس على صراخها فأسرع بالهرب.

وقال لي هذا الشاب أن تعريه كان يثير الخجل في شعور بعض الفتيات بينما يثير الاشمئزاز أو النفور في البعض الآخر، كما قد يثير عندهن شيئا من الضحك والفكاهة.

وقال لي شاب ريفي بأنه يميل إلى التجسس على النساء فيسير مسافات طويلة خلف المرأة ليكتفي بمعرفة البيت الذي تدخل فيه، كما يروق له أيضا أن يتتبع أخبار الرجال الذين يعرفهم ومدى علاقتهم بزوجاتهم، ومن أجل ذلك كان يزور أقاربه في بيوتهم ويقف الساعات الطويلة أمام منازلهم يسترق السمع. وحدثني شاب بأنه لا يثور فيه الميل الجنسي إلا إذا علقت زوجته في صدره (شخليلة) وراحت تدلله بألفاظ عذبة كما تدلل الطفل الرضيع.

وهذه الأمراض النفسية تعبر عن مدى الضعف الجنسي في الرجل، وهي أمراض قابعة في أعماق النفس، تمتد في جذورها إلى الطفولة، وإن

كثيرا من الجرائم التي تقع تحت طائلة القانون يكون الدافع لها جنسي بحت فالسرقات الجنسية الدافع لها الميل الجنسي لا المنفعة المادية.

أذكر قصة شاب قبض عليه البوليس وهو يسرق منديلا من إحدى السيدات بطريق الإكراه. واعترف في التحقيق بأنه تمكن أن يحصل بطريق السرقة على أكثر من تسعين منديلا، ووسيلته في ذلك أن يقابل المرأة في الطريق العام فيقذف على عينها بعض المساحيق أو يعطس في وجهها فتضطر لأن تخرج منديلها لتمسح به وجهها فيخطفه من بين يديها ويهرب به، ويثيره المنديل المندى بالدموع أو المنديل المعطر.

وأذكر قصة شاب آخر كان يتحين الفرص فيدخل بعض الدور ليسرق الملابس الداخلية للنساء. وحدثني شاب بأنه يميل إلى ارتداء ملابس النساء، فكان يضع على صدره (سوتيان) ويلبس (كورسيه) كما كان يرتدي جورب امرأة من الحرير الخالص، وكان يلبس فوق هذه الملابس النسائية ملابس عادية.

وهذه قصة رجل في ربيع الحياة قبض عليه البوليس في إحدى الليالي، وهو يحاول أن يغتصب ملابس امرأة في الطريق العام، وتفسير القصة أنه كان يسير في طريقه فقابلته امرأة فأوقفها ثم طلب منها أن تخلع ملابسها الداخلية وتعطيها له، وطبعا رفضت المرأة أن تفعل ذلك فحاول أن ينال غرضه بالقوة ولكنها استغاثت فهرع الناس إلى نجدتها، وعندما فتش منزله وجدوا عنده أكثر من ٤٠٠ قطعة من الملابس النسائية المختلفة، وكانت طريقته في الحصول عليها أن يتسلل إلى المحال التجارية

فيختلسها في غفلة من البائعين، أو يتسلل إلى المساكن فيسرق ما يمكن الحصول عليه، ولكنه وجد نفسه في السنين الأخيرة مدفوعا بشعور لا إرادي لاختطاف حاجيات النساء وهن يسرن في الطريق فكان يخطف حذاء امرأة في الترام أو يخطف حقيبتها أو قبعتها ويولي هارباً.

قال بأنه كان مسيرا بقوة لا إرادية فإذا أتاه هذا الخاطر العنيف عجزت القوى المختلفة عن صده أو الوقوف في وجهه فيشعر حينئذ بدوار وثقل في رأسه ثم يمسي في ذهول عبدا لسلطان الفكرة الإجرامية ويندفع في نزواته ويسطو على كل ما يقابله ويهاجم كل من رآه في جرأة وتهور حتى يحصل على هذه الملابس النسائية، فيجلس يداعبها بعطف وحنان كأنها امرأة حية يمارس معها فنون الحب المختلفة، ثم يدعوها إلى جواره ويلقي عليها تحية المساء ويغمض عينيه ويستسلم للنوم العميق، وهو لا يعتقد أن جريمته مما تقع تحت طائلة القانون ويعتقد أن ما يفعله لا يسبب ضررا للآخرين.

وأنتقل إلى قصة أخرى عن شاب في الثلاثين من عمره متزوج وله أولاد قبض عليه البوليس وهو يحاول أن يقطع جزء من معطف امرأة، فقد كانت المرأة تقف في الطريق العام وكان الزحام شديد فتسلل الرجل وأعمل مقصه في معطفها، وتمكن من أن يقطع جزءا كبيرا منه، وتنبه الناس إليه وقبضوا عليه.

وهذه قصة شاب في الرابعة والعشرين قدمه البوليس بتهمة جزع شعر النساء، ومظهر هذا الشاب وديع وهادئ وهو حديث العهد

بالجامعة، وأن الإنسان ليأسف لمثل هذا الشاب عندما ينزل إلى المستوى الإجرامي، ولكن الوجوه السمحة تخفي وراءها أحيانا نفوسا تميل إلى الشر والعنف، وتفصيل القصة أنه كان دائب التفكير في التيجان الجميلة التي كانت تزين رؤوس النساء وفي الشعر المتدلي خلف ظهورهن ما يزيده فتنة وسحرا، وكان كثير التفكير في أن يجمع إلى داره نماذج مختلفة من أنواع الشعر، وكان كثير الحلم بأن يحمل معه مقصا يقطع به هذه الشعيرات المتدلية فوق ظهورهن ومع أن الفكرة بدت سليمة إلا أن الأشكال كان يتسبب له من جراء هذا العمل قد يكون من العسير التخلص منه.

ولكن الدافع القوي كان أكبر من إرادته، سرعان ما أصبح عبدا لرغبة فوق طاقته، واشترى مقصا صغيرا حمله معه، وبينما كان يركب الترام مرة إذ رأى إحدى السيدات تواجهه، وكان شعرها جميلا متدليا على شكل جدائل بديعة فوقف خلفها وأخرج المقص وحاول أن يقطع جديلة من جدائلها، ولكنه أحس برعشة تسري في بدنه وبخوف وفزع وأحس بأنه يريد أن يصرخ ليحذر المرأة من جريمته، ولكن خانه الصراخ فانعقد لسانه، وفي الوقت نفسه زاد الدافع اللا شعوري يأمره بأن ينصاع للجريمة، فرفع يده في رعشة واقترب منها وحاول أن يقطع الجديلة. ويعلم الله أن لون الأموات كان أقرب للحياة من لونه، وأن الإنسان الذي يعيش في الجليد قد يشعر بالدفء عنه، فراحت أسنانه تتخبط مع بعضها ثم شعر بأن غمامة سوداء ارتمت أمامه فلم يعد يدرك شيئاً مما يدور حوله، وأحس بدوار شديد فارتمى على الكرسي وهو فاقد الرشد، ولما ذهب إلى داره قضى فيها أياما وهو رقيد الفراش وبعد أن ذهبت العصبية عنه وعاد إلى

حاله الطبيعية راح هذا الخاطر يوسوس له من جديد، ومرت الأيام، وحدث أن أقامت الجامعة حفلة راقصة فذهب إليها ومعه مقصه ولما دقت الموسيقى وقام الفتية والفتيات يراهن على النغمات، وكانت جدائل النسوة تتدلى خلفهن في فتنة، أخذ الرجل مقصه وراح يدور مع الراقصين والراقصات فلمح فتاة مجدولة الرأس في حلقات طويلة فحاول أن يقطع منه جزءا ولكنه لم ينجح فقد دارت الفتاة مع النغمة في اللحظة التي بدأ المقص يعمل عمله ثم دانت منه التفاتة إلى فتاة أخرى يرتخي شعرها في جدائل طويلة، وفي غمرة الزحام أعمل مقصه سريعا واقتطع جزءا كبيرا وضعه في جيبه، ثم نظر إلى فتاة ثالثة كان شعرها طويلا له لون ذهب جميل وكانت جدائلها تقترب من ركبتها ولم يأخذ الأمر طويلا حتى فاز بغنيمة الأسد، ثم جاءت الرابعة وكانت تضفر جدائلها على صدرها فوقف أمامها حائرا كيف يمكن له أن يحصل على هذه الغنيمة دون أن يثير انتباهها، ولسوء حظه لم يتمكن من مأربه، وعندما انتهى الحفل وجاء المساء ذهب إلى داره بغنائمه ودخل حجرته وأغلقها ثم راح ينشر ثروته فوق السرير.. ووقف أمام تلك الكنوز الثمينة في نشوة الفرح يتأمل تلك الجدائل الجميلة ويتأمل حكمة الخالق الذي أبدع فيها صنع ثم وضعها جميعا بجواره وراح يقبلها في نهم وشوق وقضى طوال ليله يحوم حولها كما يحوم الكاهن حول معبده المقدس، وكان يشعر بأن هالة طاهرة حطت فوقها فصبغتها بنور من عند الله، فلما أذن الليل بالانصراف وظهرت تباشير الصباح ألقى برأسه إلى جوارها، وذهب في سنة من النوم، ثم استيقظ وراح يرتبها ووضعها في مجموعات، ومنذ هذا اليوم كان يجد سهولة في الحصول على ما يشاء من

جدائل، وكان يحمل معه المقص متنقلا بين المحلات التجارية التي تكثر فيها النساء أو في زحمة الترامويات أو في المراقص العامة، فإذا انتهى اليوم عاد إلى داره ومعه حمل كبير من الغنائم، فيركن إلى حجرة ويقص تلك الجدائل إلى شعيرات صغيرة ينثرها على وجهه ثم يرتمي ساعات طويلة إلى جوارها وهو في شبه ذهول أو في شبه فقدان لشعوره ثم يبدأ في أن يستفيق رويدا رويدا.

إذا سلطنا شعاعا من ضوء على هذا الشاب، وصحت لنا بعض الحقائق الآتية: أنه شاب حزين صامت منطو على نفسه يأتي فعلته بدافع لا شعوري متلصصا في غفلة من الناس وفي خوف من اكتشاف جريمته، وحياة هذا الشاب الجنسية منحلة فقد تعود العادة السرية وكان يمارسها في كثرة، وتمكنت منه حتى أصبح عبدها فسدت عليه الطريق للجنس الآخر وصار يكتفي بها لإشباع غريزته الجنسية، وثمة عقدة أخرى نشأت في ماضيه، فقد تعود ملازمة أخته وهو طفل وكان شديد التعلق بها، وكان لها شعر طويل يتدلى إلى ركبتها، وكان يقضي كل وقته متطلعا إليها، فانعكست هذه العواطف النفسية على حياته وخلقت عنده عقدة فبات أسير الشعر الجميل.

إن هذه القصة مثل للمدى الذي ينحدر إليه البشر فيذهب بعيدا عن الوضع الإنساني ليضل الطريق، وبالرغم مما يكون قد وصل إليه من تهذيب وتعلم، وبالرغم مما يشغله من مركز اجتماعي لا يتردد أن يسقط إلى الحضيض وهي مثل لما للطفولة من أثر على الإنسان وتكوينه.

إن الانحرافات النفسية عديدة وكثيرة في مظهرها، وأنت مهما حاولت أن تخفيها فلن تقدر على ذلك، والتفسير الصحيح لها أنها منفذ الرغبات المكبوتة التي تحاول الخروج من القاع إلى السطح.

الشـــذوذ الجنســـي

حب الرؤية

تعاني الأمم المختلفة انحرافات جنسية تختلف كنتيجة الطريق التي نشأ عليها أطفالها والخطأ العام الذي تقع فيه أمهاتهم. ويقصد بالانحراف والشذوذ الجنسي والميل عن الطريق الجنسي العادي الذي غرضه – سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – النسل؛ فالشذوذ هو كل محاولة للوصول إلى "رضاء" جنسي عن غير الطريق الذي يؤدي إلى النسل عادة. ويختلف الشذوذ تبعاً لسببه وتبعا للمرحلة التي نشأ فيها، وذلك لأن النمو الجنسي في الطفل يتم على مراحل ثلاث: مرحلة حب الذات، مرحلة حسب الجنس لنفسه، مرحلة حب الجنس الآخر. ولذا تعددت وتنوعت وسائل الشذوذ الجنسي، وسنعالج كل قسم على حدة مبتدئين بالمرحلة الأولى:

مرحلة حب الذات

يبدأ الطفل حياته الجنسية مركزاً كل اهتمامه بنفسه وبأعضائه يتحسسها مستكشفا، وقد يجد سرورا في لمسها، وهو لا يعتقد في هذه الفترة أن في الدنيا من هو جدير بالحب والملاطفة إلا ذاته فإذا فرغ من ملاعبة نفسه جعل يلاعب خياله ويؤانسه ناظرا إلى المرآة مجتليا محاسنه، وتنتهي عند السادسة أو السابعة، وهذه المرحلة ثلاثة أطوار: المرحلة الفمية، المرحلة الشرجية، المرحلة التناسلية.

ففي الطور الأول: يتركز اهتمام الطفل فيه بمنطقة الفم، فيحصل على ما يرضي عواطفه بواسطة الرضاعة ومص الإبهام.

والطور الثاني: وذلك خلال الستة شهور الأولى من حياته إذ يفقد الفم أهميته نوعا ويجد الطفل فيما يخرجه أو يستقيه من فضلات مصدرا لرضائه.

والطور الثالث: هو الفترة التي يعثر فها الطفل على أعضائه التناسلية ويجد في لمسها شعورا بالراحة، تبدأ في نهاية السنة الثالثة وتنتهي في السابعة على الأكثر.

وهذه المرحلة بأطوارها الثلاثة من أهم ما يكون بالنسبة لمستقبل الطفل فقد ينشأ عنها أنواع الشذوذ الآتية:

- البخل والعناد نتيجة لتلذذ الطفل من إبقاء فضلاته
- الميل للعدوان خصوصا بالعض وبذا يبقى اهتمامه بالمنطقة الفمية، وقد يزداد هذا الميل فيجد المريض لذة في تعذيب نفسه والتمتع بمشاهدة علامات الألم "السابقة".
- العادة المعروفة.
- حب العرض أي تعريض كل أو جزء من جسمه.
- حب الاستعراض، أي السرور من مشاهدة الأعضاء المستورة من أجسام الآخرين.

- عشق الذات (النارسيسزم).
- عقدة الإخصاء في الذكور وعقدة الذكورة في الإناث.
- عقدة أوديب أو تعشق الطفل لأمه.

***

حب الرؤية من أكثر أنواع الشذوذ انتشارا، والمريض بهذه الحالة كثيرا ما يكون مصابا بالعنة – من الكهول غير القادرين أو الشبان كثيري الخجل – ويجد سرورا في مشاهدة الآخرين سواء خلال علاقة زوجية أو وهم عراة، بل يكتفي بعضهم أحيانا بمجرد مشاهدة أفراد من الجنس الآخر في وضع غير طبيعي؛ فالرجل الذي يهزه أن يرى فتاة تصعد السلم أو منحنية تلتقط ما وقع منها، وقد يكتفي البعض بملاحظة الحيوانات في علاقة زوجية، بالطبع يتحايل هؤلاء المرضى على هذه المشاهدات بمختلف الطرق، وذلك إما بالنظر خلال ثقوب الأبواب المغلقة أو بالدخول إلى الغرف المغلقة بلا استئذان أو بالتطلع من وراء النوافذ خلال الليل أو باستعمال النظارات المكبرة.

وقد يكتفي المريض بالانتظار في مواقف السيارات ليمتع نظره بركابها أثناء صعودهم ونزولهم، إلى غير ذلك من الوسائل الشاذة التي يعاني منها الكثيرون. ولعل كثرة المشارب في مصر وكثرة روادها ترجع إلى انتشار هذا النوع من الشذوذ بدرجة خفيفة. وقد استغل هذا الانحراف في بعض البلاد الأجنبية كطريقة للكسب المادي فتأسست الشركات التي يدير بعضها

محلات تعرض فيها أفلام خليعة أو مناظر حية تمثل أدق العلاقات أو تطبع وتنشر صورا تحرص كل الحكومات على منع تداولها.

وقد تؤثر هذه الحالة في السلوك العادي الشخصي وتحدد له نوع علاقاته وما غواة التردد على أحياء الخلاعة إلا من هذا النوع إذ أنهم يجدون هناك كل ما يثير غرائزهم الحيوانية.

وقد تحدثت بعض الكتب العلمية عن حالة رجل محترم تزوج بامرأة غير شريفة لا لسبب إلا لأن طريقة حركات جسمها أثناء السير تؤجج في نفسه شعورا بالرضا تجعله يصرف النظر عن وجهها القبيح، وخلقها الأقبح. وكان يكتفي بعد زواجه منها بمجرد تكليفها بالسير أمامه مستعرضة مفاتن جسمها ويستغرق هو في نشوة جنونية حالمة. وهو يشبه في هذا كثيرا من الحيوانات، ولعل الذين قضوا وقتا في الريف يذكرون كيف يثيرون هناك غرائز الثور بقيادة البقرة والسير بها حوله بحيث يمكن أن يتابعها بنظره.

هذا الشذوذ أي "حب الرؤية" ينشأ عن كبت في المرحلة الأولى للنمو الجنسي نتيجة لقمع مسمى من الآباء للأبناء ومنعهم من مجرد مشاهدة أعضائهم وتكرار تعريفهم بأن الأعضاء الداخلية "أعضاء مخلة بالآداب" دون أن يفهم الطفل سببا لهذا فتتكون لديه فكرة خاطئة عن أهمية هذه الأعضاء، وبالتالي تنمو عنده الرغبة في استجلاء سرها.

بينما هو لو أفهم أن هذه الأعضاء قيمتها كقيمة باق الأعضاء وهي لا تختلف في الأهمية عن غيرها، فلكل عضو وظيفة لا يمكن الاستغناء عنها لما تكونت لديه هذه الفكرة.

وكما تحرص على إخفاء الأعضاء المختلفة لوقايتها من المؤثرات الخارجية كذلك تحرص على هذه الأعضاء، وكما ننبه الطفل إلى ضرورة حماية الرأس من الشمس لشدة حساسيتها، كذلك يجب أن ننبهه إلى حساسية هذه الأعضاء وإمكان تأثرها بالعوامل الخارجية دون أن تثير خوفه من مدى هذا التأثير وإلا وقعنا في مشكلة أخرى هي "عقدة الإخصاء" في الذكور أي الخوف من فقد أعضائه وهي الأخرى تؤدي إلى شذوذ آخر هو حب العرض أي تعريض أجزاء الجسم للناس.

خطاب من شاب

أنا مريض بحب الرؤية منذ زمن بعيد أترصد المناظر العارية في أي مكان سواء أكان في البيت أو الشارع أو المكتب، وأستطيع أن أوضح فأقول إن جميع أعراض هذه الحالة التي ذكرتموها تنطبق علي تمام الانطباق حتى وكأنك تصف بها حالتي بأكملها. إنني شاب أعزب أبلغ من العمر ٢٩ سنة وجدت في بيئة محافظة جدا شديدة الخجل والحياء خصوصا في حضرة النساء، فإذا ما خلوت لنفسي رحت أترصد مناظرهن من أي فتحة أو نافذة أو صعدت إلى أعلى الدور لأرى من الأسفل.

لقد عرفت العادة الممقوتة منذ حداثتي وأصبحت لا أستطيع الصبر عنها يوما واحدا فانهدت قواي واضمحلت صحتي وأصبحت شديد النحافة بعد أن كنت مكتمل الصحة، فجربت المستحيل لأبتعد عن هذه العادة، ولكن بدون جدوى فلم تكن إرادتي لتستطيع التحكم أكثر من أسبوع إلى أسبوعين حتى تعاودني الفكرة. وأخيرا تحكم في مرض وحب الرؤية، فأصبحت لا أستمتع فعليا إلا بمنظر امرأة عارية تظهر بعض أجزاء جسمها وأنا وراء ستار يحجبني عنها. وأنا لم أقرب النساء قط ولم أتعود الالتجاء إلى دور البناء أبدا تظهر على مسوح التقوى وحسن المعاملة، كثير التفكير أقلب الرأي من جميع وجوهه قبل أن أتخذ رأيا ما، ولكني كثيرًا ما أنساق لآراء الآخرين وراء تحكم حالة الخجل وعدم الشجاعة في إبداء الرأي.

أبلغ من الطول ١٨٠ سم وأزن اليوم ٩٣ كيلو جراما شديد النحافة شديد التفكير كثير الهموم أنظر للحياة بمنظار أسود وأتمنى لو لم أخلق في هذا الكون وأرى أن هذه الحياة كلها عبث ولا معنى لوجودها ولا لوجودنا فيها. أما اللمس فشديد الحساسية، وأذكر مرة أن إحدى موظفات التليفون أخذت تكلمني بكلام مثير فما كان إلا أن وصلت إلى رضاء تام دون أن تقربني.

سيدي: هذه حالتي عرضتها لكم بالتفصيل، ولما كنت شديد الرغبة في التخلص من هذه الحالات الآنفة الذكر والاستيعاض بمجالات تبعث في نفسي الثقة وعدم الشعور بالنقص كرجل يجب عليه أن يفيد ويستفيد من

المجتمع البشري وبسبب حالة مؤلمة تسببت عن وفاة والدي، أصبح أهلي يلحون علي بالزواج حتى أنهم أحضروا لي خطيبة ليحصروا تفكيري في حالة معينة إلا أنني مازلت شديد الريبة من نفسي ومن قدرتي على الزواج. أرجو ألا تبخلوا علي بردكم سريعا لأستطيع أن أتخذ قرارا في مستقبل من الحياة الزوجية سأدخله مضطرا وبحكم الضرورة.

المحرر: إن ما يشكو منه حضرة "ص.ص" حالة نموذجية من حب الرؤية مع مضاعفتها والعلاج يتضمن ناحيتين: أولا – إدمان العادة الملوثة. ثانيا – حب الرؤية وحده.

فبالنسبة للعادة ليس أسهل من علاجها ما دامت الرغبة متوفرة، وما دمنا نعرف أن نشاط الإنسان يتوقف على ما عنده من طاقة حيوية فإن أفرط في الناحية الجنسية قل نشاطه في الحياة والعكس؛ فعلى ذلك لو أنك وجهت هذا النشاط بعيدا عن الناحية الجنسية، فلا شك أنك متصل إلى التخلص من هذه العادة وبالتالي من مضاعفاتها وهي الخجل والحساسية الزائدة والضعف. وإليه نصائحي:

- ابدأ بدراسة بعض الكتب الدينية.
- العب كل ما أمكنك لعبه من الألعاب الرياضية.
- اشترك في أحد أندية السباحة، وهنالك يمكن أن تعتاد منظر العري في جو بعيد عن خيالاتك وأوهامك وستجد أنه من السهل أن تحيا دون أن تثور مشاعرك

- لا تجلس وحيدا وإذا حدث وتعرضت للوحدة فسل نفسك بكتابة ما ينتابك من مشاعر وبذا تنفس عن رغباتك بالكتابة بدلا من العمل.

- كل ليلة قبل النوم استلق على ظهرك وأرخ كل أعضائك وأبعد عن مخيلتك كل شيء ثم اهمس بصوت تسمعه أنت "سأكون غدا أحسن من اليوم" وكرر هذه العبارة مدة خمس دقائق ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع قل "سأكون غدا رجلا كاملا" وكرر هذه العبارة لمدة عشر دقائق وهكذا لمدة ثلاثة أيام أخرى.وفي اليوم التاسع قل "إني اليوم رجل كامل". وكرر هذه العبارة لمدة ربع ساعة وهكذا لمدة أسبوع وإني أؤكد لك أن هذه الطريقة المعروفة بطريقة "الإيحاء الذاتي" ستوصلك إلى خير النتائج.

- وبعد هذين الأسبوعين خذ قلما وورقة واسرح بذاكرتك إلى عهد الطفولة ودوّن ذكرياتك مستعينا بالكلمات الآتية: حجرة نوم. حمام. دورة مياه. أم. أب. خادمة. أخ. أخت. سرير. سطح. ضرب. عقاب. أي اكتب كل ما تثيره هذه الكلمات ولا يهم أن يكون ما تكتب له ارتباط ببعضه، المهم اكتب وأرسل لنا ما كتبت.

- ثم إن حالتك على ما يبدو من خطابك ليست سيئة إلى الحد الذي يبعث في نفسك هذا اليأس فأنت تكتب جيدا وتصف حالتك بشكل واضح وخطك ينم عن شخصية لا بأس بما يمكن أن تنضج أكثر وتجني ثمارها متى زالت هذه الحالة.

- مسألة الزواج.. أرى تأجيلها الآن وأتم أولا الخطوات السابقة.
- كن على ثقة أنك ستتغلب على كل متاعبك، وأرجو أن توافينا بأخبار سارة.

حب العرض

هذا نوع آخر من الشذوذ الجنسي معناه رغبة المريض به في تعريض كل أو بعض أجزاء جسمه سواء خلال علاقة زوجية أو أثناء انفراده بنفسه، والقيام بهذا العمل يرضي المريض ويزيل ما يشعر به من انقباض، ومثل هذا العمل تعاقب عليه كل قوانين العالم المتمدن وتعتبره منافيا للآداب العامة.

ومعظم المرضى بهذا الشذوذ من الرجال لأنه يسهل عليهم تعريض بعض جسمهم، أما النساء فيعتبرون كل أجسامهن قابلة لذلك، وهذا ما نلاحظه على كثير من السيدات حيث يخترن ملابس من طراز خاص تكشف عن مفاتن جسمهن.

وليس معنى ذلك أن الشواذ من الرجال يلجئون إلى تعريض منطقة معينة من الجسم فقد تمكنهم أن يصلوا إلى الرضاء التام لو عرضوا صدورهم أو أرجلهم.

ويجب أن لا يختلط هذا الشذوذ مع الميل إلى الرياضة في الهواء الطلق والتمتع بالهواء والشمس لأن الأول يصحبه حتما رضاء جنسي

ويعقب القيام بهذا العمل الشاذ أن يعود المريض إلى منزله، ويستبعد ذكرى ما حدث ويستغرق في حالة عصبية تنتهي بالعادة المعروفة.

وقد لوحظ أن أمثال هؤلاء الشواذ يقومون بهذا العرض بشكل منتظم أي في مكان ووقت معين. فلكل ميدان خاص، والبعض يفضل الحدائق العامة والبعض الآخر يميل إلى الاقتراب من مدارس البنات، وقد لاحظ الدكتور "إبراهام" أن بعض فتيات الحي في بلده يحدثن بعضهن عن المكان والزمان الذي يقوم فيه الشواذ باستعراضهم.

وليس الاستعراض قاصرا على الحدائق وقرب مدارس البنات بل إن البعض يختار أماكن أخرى غير تلك، فهذا المريض الذي شخص حالته "جارنيير" كان يتردد على المعبد. وإليك حاله كما يصفها بنفسه.

تسألني لم أذهب إلى المعبد؟ لا يمكنني أن أجيب! ولكنى أعرف أنه هناك فقد تكون أعمار مثيرة للاهتمام الذي أرغبة! فالسيدة التي تكون في هذا المكان وتكون مستغرقة في صلواتها لا بد أن تشعر أن ما أعمله في مثل هذا المكان ليس مجرد نكتة تدل على قلة ذوق أو رغبة في المزاح بل إنه عمل خطير. وراقب الأثر الذي يحدثه عملي على وهج السيدات، وأراهن يظهرن سرورهن البالغ أو أسمعهن يقلن "ما أشد أثر هذا الطفل خصوصا عند ما نراه في هذا المكان" ..

وهذه الحالة تقدر نفسية المريض بهذا الشذوذ فهو يرغب أن يثير إعجاب وسرور ملاحظاته من السيدات وكان يفضل أن يرى ابتسامات الرضا على أن يرى غضبهن وخوفهن.

ولعل أشهر الشواذ "جان جاك روسو" الكاتب المشهور فهو يقول في اعترافاته محللا نفسيته:

"كان دمي يسري في عروقي وكان عقلي مشحونا بالسيدات والبنات، ولكن العار لحقيقة ما حدث زاد من خجلي ولم أعد أقوى على صحبة فتاة وهذه الحادثة على الرغم من أنها لما توصلني إلى كامل ما كنت أرجو فإنها مكنتني من أن أصبح قويا لمدة طويلة".

والخوف مما قد يحتمل حدوثه من مشاكل يزيد سرور المريض، وكلما زاد احتمال الحظر كلما تجسم له هذا السرور فهو يعرف أن القانون والأخلاق يمنعانه من هذا الفعل الفاضح وأن وقوعه في يد العدالة مرة كفيل أن يلقي به في غياهب السجون ومع ذلك لا يجد إلا ما يلهب خياله.

وهناك مأساة أخرى يقصها شاذ حكم عليه بالسجن:

إني مخلوق تعيس الحظ فأنا رجل طبيعي أقوم بأعمالي خير قيام، ولكن في كل شهرين أو ثلاثة أصاب بنوبة تدفعني إلى السير في الطريق ساعات طويلة، ولقد ذهبت مرة إلى المستشفى لأمنع نفسي من التعرض للخطر ولكن في الساعة التاسعة ليلا وصلت النوبة إلى أشد حالتها فقفزت من السور مدفوعا بقوى لا يمكنني مقاومتها وجريت بأقصى سرعة وهناك في طريق مهجور شاهدت عن بعد فتاة تقترب فاختبأت في مكان معتم ولما اقتربت مني عرضت بعض جسمي، وما زلت أذكر كيف أن

عيونها اتسعت خوفا وذعرا وأنها أغمي عليها ولكن ذلك كله ألهب حواسي لدرجة أوصلتني إلى رضاء تام.

وأخرى يقصها الدكتور "موران" عن أحد مرضاه: كان مندوبا متجولا لإحدى شركات المطاط وعمره خمسون عاما، وطباعه تلائم الموظف الذي يتقن عمله بكل جد ومظهره الخارجي وقور ومحترم. وعلى قدر كاف من التعليم. وكان يرتدى معطفا أزرق خلال طوافه على المنازل لعرض منتجات الشركة التي يعمل بها مستعملا ألفاظا مهذبة جدا. وكان كل شيء يسير كما يجب.. إلا في حالة واحدة فإذ ذاك عندما يصل إلى عرض نوع معين من أنابيب المطاط تغرورق عيناه بالدموع وتهتز أهدابه وتحمر خدوده ويثقل لسانه ويحتبس صوته حتى يخيل للذي يشاهده أنه يقاوم رغبة جارفة آثمة تسيطر عليه حتى تصرعه، وعندئذ يفقد كل وقاره، وينظر إلى وجه محدثته ويبدأ في خلع ملابسه.

العلاج

هذه بعض أحوال شاذة سجلتها دائرة العلوم الحديثة، ويرجعون هذا الشذوذ إلى ما يسمى "عقدة الإخصاء". أي الخوف الذي يشب مع الطفل لاحتمال فقد بعض الأعضاء، وهذا ينشأ عن تكرار خوف الطفل وتحذيره من لمس أعضائه وإلا مسها ضرر، فقد يبالغ بعض الآباء ويحدث طفله بأن مجرد تعريض أعضائه أو لمسها يؤدي إلى فقدها. والواجب أن لا نبالغ في الاهتمام بحركات الطفل وأن لا نفسرها على ضوء خبرتنا الجنسية.

وعلاج هذه الحالة يقتضي تحليلا نفسيا للوصول إلى كيفية نشوئها. ومظهر هذا الشذوذ في مصر انتشار التبول والتبرز في الطرق وميل الكثيرين إلى النكت الخارجة عن الأدب خصوصا لو كانت في حضور أفراد من الجنس الآخر.

السادية والماسوشية

حالة ثالثة من حالات الانحراف الجنسي لها خطرها البالغ هي أن يصحب العلاقة الجنسية قوة تخلف شدة من مجرد الضرب إلى القتل. فإن كان الرجل هو الذي يقوم بمهمة التعذيب اعتبرت الحالة "سادية" وإن كانت المرأة هي التي تتولى هذه المهمة كانت "ماسوشية" وفي الحالتين يصل الرجل إلى رضاء تام. أى أن الرجل إما أن يجد المتعة في تعذيب من معه ويتلذذ من مظاهر الألم التي تبدو على وجهها أو أنه يجد فيما يتعرض له من ألم نشوة جنونية، وبالمثل المرأة.

وقد سميت الحالة الأولى بالسادية نسبة للمركيز دي ساد الذي لم يتورع عن تسجيل أعماله الإجرامية في مذكراته التي أشهرها كتاب "جوستين وجوليت" حيث يصف المناظر الآتية:

أجسام دامية وأطفال تنتزع من أحضان أمهاتهم، فتيات تقطع رقابهن في نهاية علاقة زوجية، أكواب تملأ بالنبيذ والدم، اختراعات عجيبة لآلات التعذيب: غلايات كبيرة توضع فيها أجسام الرجال والنساء ثم تسلخ جلودهم أسلحة لنزع القلوب من الصدور.. إلى غير ذلك مما تقشعر له الأبدان! وبعد كل هذه الحوادث التي تفزع من مجرد سماعها الأفئدة يقف هذا المركيز المجنون مبتسما راضيا بما عمل...

أما الماسوشية فقد سميت تبعا للكاتب الألماني "سائر ماسوش" مؤلف كتاب "فينوس في ملابس من الفراء" حيث يصنف غراميات امرأة قاسية محبة للسيطرة مع رجل يجد سرورا في سيادتها عليه!

وقد خيل للقراء أن المؤلف لا يصور إلا قصته شخصيا، ومن هنا نشأت التسمية هذا على الرغم من أنه احتج بشدة على هذه التسمية، وأنكر بتاتا كل صلة له ببطل القصة، وهكذا جنت على الكاتب قصته.

والوقع أن هناك شبها كبيرا بين السادية والماسوشية على الرغم من الاختلاف الظاهري بينهما. فالواقع أن الحالتين تسيطران على نفس الشخص في وقت واحد. وهذه حالة يقصها الدكتور إبراهام:

أ- ب .... رجل في الخامسة والثلاثين من عمره، عمله يدوي، يجب أن تضربه زوجته وتقيده في سلاسل فيستسلم لها كل الاستسلام، ولكن ما يمكن أن تعمله الزوجة من ضروب التعذيب قليل لا يكفي لإرضاء الرجل والوصول به إلى السرور التام. ولذا ينصرف الزوج إلى تعذيب نفسه (سادية ذاتية) بأن يجرح نفسه بسلاح حاد وبذا يصل إلى ما يرجوه من السرور التام، وكان يحدث هذه الجروح في نهاية ظهره أعلى الفخذين. وفي كثير من الأحيان كان يشعر برغبة في تعذيب زوجته وأحيانا كان يتردد على الأحياء غير الشريفة حيث يعذب بعض ساكناتها ضربا بالسياط.

وعلى هذا فهو سادي أحيانا، ماسوشي أحيانا أخرى، والواقع أنه من النادر العثور على سادية صرفة أو ماسوشية صرفة؛ فالحالتان متلازمتان

دائما. ولذا عرف "فرويد" – الماسوشية – بأنها سادية نحو الشخص نفسه.. وإلى وقت قريب كان الاعتقاد العام أن السادية لا يمكن أن توجد إلا في الرجال الأقوياء، وهناك من الحالات أثبتت وجود ساديين ضعاف البنية وماسوشيين أقوياء.

وفي السادية والماسوشية ليس للأعضاء التناسلية عمل مباشر لأن العلاقة الجنسية استبدلت بالقسوة والتعذيب. فقد لاحظ الدكتور هرنارد في معظم الأحوال أن الشواذ (الساديين والماسوشيين) يستهلكون قواهم في التعذيب حتى يمكن أن يصلوا إلى رضاء جنسي، إذ أنهم في الواقع مصابون بالعنة أي الضعف التناسلي.

وقد يسلم البعض بأن التعذيب ومشاهدة آثاره على الغير قد يكون باعثا للسرور بدوره قد يؤدي إلى الرضا الجنسي، ولا يسلمون بأن الألم يمكن أن يصل المريض إلى تمام الرضاء. والواقع أن السرور نفسه ليس هو الذي يرضي المريض إنما الإحساس الداخلي الذي نشأ عنه في النفس فكما أن السرور ينشأ عنه إحساس داخلي كذلك الألم فكأن الألم والسرور قد أوجدا إحساسا داخليا، هذا الإحساس الداخلي هو السبب فيما يشعر به المريض من رضاء.

وقد أكد العالم "هاتلوك أليس" أن الساديين والماسوشيين غالبا ضعاف من الوجهة التناسلية ولا بد من منشط قوي يثير إحساسهم الجنسي، ومن أمثلة هذه المنشطات السرور والحزن.

ولا يغيب عن بالنا أن للسادية والماسوشية أثر في التكوين النفسي للحياة الجنسية؛ فالحياة الجنسية تتضمن بعض مظاهر عناصرها الألم كالضم العنيف واستعمال الأسنان والأظافر. ولعل الكثيرين منا لاحظوا أن إناث بعض الحيوانات تشاهد بشغف اقتتال الذكور.

والساديون لا يستعملون القسوة تعطشا للقسوة نفسها، إنهم يرغبون من رفيقاتهم اعتبار الألم كالسرور، وكما يثيرهم وكذلك يتمتعون بالألم فهم يريدون إثارة من معهم بأي وسيلة وأشد الطرق تأثيرا في نظرهم هو إيلامهن. ولذا يلجأ بعض الساديين إلى وخز ضحاياهم الأبرار ويصممون على أن تحتفظ الضحايا بالابتسامة التي تقنعهم بالسرور وحتى إذا انتقلت الحالة إلى قتل الضحية لا يكون الغرض هو إحداث المجزرة بل التمتع بمشاهدة الدم. وهذا هو السبب في أن هؤلاء الساديين يحدثون الجروح في أكثر المواضع ازدحاما بالأوعية الدموية.

وقد تضعف السادية والماسوشية إلى حد الاكتفاء بالشتائم، ويعتبر هذا الشذوذ بسيط نلخصه فيما يلي:

تتوقف حياتنا على ما يمكن أن نبذله من طاقة حيوية تشبه بريق يندفع من النفس ليعبر عن نفسه في طريقين أحدهما يمثل حب السيطرة على كل ما يحيط به من معنويات وماديات والآخر يمثل الرغبة في الاحتفال بالجنس "الغريزة الجنسية" والحالة الطبيعية هي حيث لا يعوق التيار الساري في الطريقين شيء ولكن لو سلكت إحدى القناتين فإن الطاقة الحيوية لا تندفع في الطريق الخالص وهنا يظهر الشذوذ، أعني لو امتنع تصريف بعض

الطاقة عن طريق الغريزة الجنسية لاتجهت كل الطاقة الحيوية إلى طريق الغريزة الثانية "حب السيطرة" فإن الطاقة تتجه كلها إلى إرضاء الغريزة الجنسية إذ يجد فيها المريض وسيلة لإرضاء غريزة السيطرة أيضا.

وهذا هو السبب في أن معظم الشواذ من المصابين بضعف تناسلي، أما الماسوشية وهي كما سبق القول تلازم السادية فتحل محل غريزة السيطرة غريزة أخرى هي غريزة الخضوع. فلا بد للطاقة الحيوية أن تجد منفذا لها، ولا فرق بين غريزتي السيطرة والخضوع فالأولى سيطرة من الذات والثانية سيطرة على الذات.

وليس معنى ذلك أن يتخذ الإنسان أي طريقة لتصريف طاقته، ولكن من واجبه أن يعمل على توجيه هذه الطاقة وجهة نافعة، ويكتفي من طريق الغريزة الجنسية بأبسط نصيب على أن يصرف باقي الطاقة في تحسين مركزه وخدمة المجتمع ومعظم النوابغ من الرجال كانوا هكذا، ولعل التاريخ يذكرنا بذلك فهذا نابليون وهتلر وسعد زغلول من أحسن الأمثلة على ذلك.

وليس معنى ذلك أن نكبت غرائزنا إنما واجبنا أن نسويها، وهناك بعض أحوال سجلتها دائرة المعارف الحديثة عن مشاهير الشواذ: مصارعو الثيران، ومحبو المصارعة الحرة، ولاعبو السيرك، والمدرسون الذين يحبون ضرب التلاميذ وتعذيبهم ممن يعتمدون على القول الخاطئ.. من يحب كثيرا يعاقب كثيرا ولعل مثلنا البلدي المشهور "ضرب الحبيب زي أكل الزبيب" ليس إلا أثرا من آثار السادية والماسوشية.

- لوسيان، من عصور الرومان يقول: إن الرجل الذي لم يمطر حبيبته بوابل من الضربات، ولم يشد شعرها من جذوره ولم يقطع ملابس حبيبته لم يحب بعد.

- نيرون الذي كان يلهو بقيثارته وروما تحترق وأصوات القتلى وصراخ الأطفال يرن في أذنيه كموسيقى ناعمة تبعث في نفسه أروع المشاعر.

- سفاح دوسلدورف الذي تسبب في قتل عشرات من النسوة.

- سفاح ماتوسكا الذي تسبب في حادث بيانورباجي حيث ارتكب ما أدى إلى قلب قطار بأكمله وتمتع بمرأى مئات الجثث المحطمة الدامية ضاحكا راقصا على أصوات فزعهم.

- سجانو مناطق الاعتقال في ألمانيا، ولعل الكثير لم ينسوا كيف كانت جلود الضحايا تنزع من أجسادهم لتزيين المنازل.

- وحش الإسكندرية.. الذي قتل عددا من الرجال بعد علاقة شاذة.. فهذا الرجل لم يجد الوسيلة التي تكفل له إرضاء غريزته الجنسية تمام الرضاء لسبب ما كإصابته بضعف تناسلي وهو الرجل القوي الجسم أو رغبات مكبوتة في نفسه من الصغر فاتجهت طاقته الحيوية إلى غريزة السيطرة حيث نجح في أعماله ووصل إلى ثراء يحسد عليه لم يهيئ له فرصة التمتع بالغريزة الجنسية فاتجه في التيار الذي وصفته الأخبار وكان عند تعذيب فريسته وقتلها يتلذذ جنسيا.

الماسوشية

أما الماسوشيون فأكثر عددا والشواذ من الرجال أضعاف الشواذ من النساء لأنه من الطبيعي أن تخضع المرأة للرجل فليس في ذلك شذوذ. وأشهر الماسوشيين، وهم الفريد موسيه وروسو. والأخير روى أخبار شذوذه في كتبه بلا تورع وقد اعترف بأنه كثير ما جلدته صديقته الآنسة لامبير سيير وكان يجد في ذلك لذة كبرى. وهو يعبر عن ماسوشيته بقوله: "كم هو لذيذ وممتع أن يجد الإنسان نفسه تحت أقدام سيدة متكبرة، يطيع أوامرها، ويلبي مطالبها، كالكلب الأمين ولا يتردد في أن يقدم لها اعتذاره عن كل ما يرضيها. وكلما أمعنت في احتقاري كلما زاد حبي لها".

ويصف الدكتور هرنارد أحد مرضاه فيقول: كان يجد متعة كبرى في أن يجد نفسه ذليلا أمام صديقته حتى ليزيد نفسه ذلة بشرب إفرازاتها وإذا لم تتيسر له صديقته كان يتخيل مناظر بشعة ويتصور نفسه مسجونا تقيده سلاسل ضخمة حيث يعذبه عشرات من الحراس قساة القلوب

كما يصف مريضا آخر فيقول: وكان يحتفظ في منزله بمجموعة من الأدوات الحديدية كالكماشات والملاقط، والحبال والمسامير والدبابيس التي كان يضعها على النار قبل استعمالها، ثم يجلس بين أقدام صديقته مقدما لها كل فروض الطاعة والاحترام ويدعوها إلى ركوبه كما تركب الحمار وتنتقل به من مكان لآخر.

يجد الماسوشيون صعوبة كبرى في الحصول على من يمكنها أن يستعبدهم، وكثيرا ما ينشر بعضهم في الصحف إعلانا فيه "مطلوب مدلكة قوية جدا أو مطلوب مديرة منزل قاسية" أو رجل مهدد بالقتل يطلب امرأة قوية تتقن المصارعة الحرة لحمايته.

العلاج

من الصعب جدا علاج هذه الأحوال بصفة عامة حيث تختلف كل حالة عن الثانية تبعا لطريقة نشأتها. ويمكن أن يتولى هذه المهمة طبيب نفساني يحلل نفسية المريض ليتعرف من عقله الباطن ماضيه بأسئلته المنوعة، ومتى وصل إلى سر هذه العقدة فإنه من السهل جدا أن يتم العلاج. وقد اتبعت في ألمانيا طريقة الإخصاء كوسيلة لإنهاء كل رغبة جنسية وأحيانا يكتفون بحجز المريض في مستشفى خاص

عشق الجنس

هذا نوع آخر من الشذوذ معناه ميل جنسي شاذ من الذكور للذكور أو من الإناث للإناث، وهو أكثر أنواع الشذوذ انتشارا، ويعاقب علية القانون الديني والوضعي، وتبلغ نسبة المصابين به ٣٥% في المائة في العالم وقد زادت هذه النسبة كثيرا في الحرب الأخيرة.

وقد لوحظ هذا الشذوذ في بعض الحيوانات كالخنازير والقردة، كما أن التاريخ يحدثنا عنه كثيرا فهذا أرسطوطاليس يصف الحب بين الشبان وهناك بعض الفلاسفة الذين يرفعون مثل هذا النوع إلى مستوى أعلى من الحب الأصلي بين الجنسين. فأفلاطون يقول: "إن من الظلم أن تتهم عشاق الجنس بعدم التواضع فهم لم يلجأوا إلى هذا الطريق لقلة تواضعهم بل لأنهم أقوياء الروح والرجولة فهم يبحثون عن شركاء من نفس جنسهم لأنهم يقدرون جنسهم هذا، وهو يستمر في وصف علاقته مع سقراط"

ومن مشاهير الشواذ: يوليوس قيصر، ونيرون، وفيليب الجميل، وهنري الثالث، ورودلف الثاني "آل – هبسبرج". وجاء عصر النهضة حيث نجد ميكائيل أنجلو ومارلو وشكسبير الذي تحدث بصراحة عن ميله الشاذ في كثير من كتاباته. والواقع أن منشأ هذا الشذوذ يرجع إلى نقص في التربية الجنسية، ويقول عنه فرويد: "في جميع الأحوال لاحظنا أن الشواذ في فترة من حياتهم ركزوا كل اهتمامهم في امرأة هي غالبا أمهم، فلما

انقضت هذه الفترة ولم يجدوا أحدا يهتمون به أو من يمكن أن يحل محلها اهتموا بأنفسهم وأمثالهم.."

وفي رأي آخر: أنه ينشأ عن نقص في التربية الجنسية أثناء مرور الطفل في المرحلة الجنسية الثانية على اعتبار أن مراحل نمو الطفل الجنسية ثلاث وهي حب الذات، حب الجنس نفسه، حب الجنس الآخر.. ففي هذه المرحلة (عشق الجنس) تنتقل محبة الشخص لذاته إلى زملائه من الجنس نفسه فترى الولد يحب الأولاد أكثر ما يحب البنات حتى لقد يحتقرهن، والعكس مع البنات فإنهن يحتقرن الصبي. وكثيرا ما يلاحظ تأليف عصابات في المنزل الواحد من البنين ضد البنات، وهذا التحزب طبيعي لأنه طريق للتحمس للجنس الأحسن والأقوى وأن الآخر أحقر منه، وكذلك البنت تشعر نفس الشعور.

وهذا لا بد منه فهو أحد مظاهر الرغبة في البقاء وحفظ النوع والسيطرة وعامل مهم من عوامل التربية حتى يشعر كل بقيمته ويسعى للعمل على رفعة نفسه ورفعة الجنس الذي ينتمي إليه ويسهل عليه بعد ذلك أن يؤدي رسالته في الحياة بنجاح..

وقد يرى الولد في هذه المرحلة أن والده أو شقيقه أو صديق لأحدهما بطلا فيعتبره مثله الأعلى وكذلك البنت ترى مثل هذا في أبيها أو أختها أو مدرستها. وأظن أننا كلنا لنا هذا الشعور وما زلنا نلمسه في أخواتنا وأبنائنا. وهذه المرحلة الثانية تتم في سن ٧ – ١٤.

والانتقال إلى المرحلة الثالثة (الميل للجنس الآخر) مهم وتظهر هذه الرغبة في حب الولد لأمه وميله إليها أكثر من ميله لأبيه بعد المرحلة الثانية. وهذا هو السبب في النظرية القائلة أن الولد يتزوج أكثر السيدات شبها بأمه والبنت تفضل من الرجال من يشبه أباها، بفرض حسن العلاقات بين الوالدين والأبناء. وقد يتسبب عن عدم الانسجام بين الابن وأمه أن يكره الجنس الآخر ويستمر على حبه لأبيه ويعانى كثيرا في حياته خصوصا الزوجية، ويحدث المثل مع البنت التي لا تجد في أبيها ما يرضي آمالها فتنصرف عنه إلى حب أمها، وتستمر على حب جنسها وتكره الجنس الآخر، وهذا أحد الأسباب الرئيسية التي تؤخر بل قد تمنع النمو الجنسي الطبيعي، وتتدرج إلى حب الجنس الآخر وتجعل من بعض الناس عشاقا لجنسهم.

ومن واجب الوالدين في هذه الحالة أن يراقبوا تصرفاتهم وأن يجعلوا من أنفسهم مثلا عليا لأولادهم فيجدوا فيهم كل الصفات التي تحببهم في الجنس الآخر، وإذا وجدوا انحرافا عن الطريق الطبيعي لعاطفة البنوة الطبيعية، ومن مقتضياتها أن الولد يحب أمه أكثر والبنت تحب أباها أكثر من واجبهم ألا يشجعوا هذا الانحراف بل يقوموه بلباقة، وأن يراقبوا الأطفال جيدا ويعطوا المعلومات الكافية حتى لا يلجأوا إلى علاقات غير طبيعية لاستكشاف ما يلزمهم من معلومات، وقد يستسهلوا العلاقة مع أفراد جنسهم وهنا الطامة الكبرى وأحيانا يخطئ بعض الآباء فيحببوا للطفل جنسه ويبعثوا في نفسه الكراهية للجنس الآخر.

العـلاج

أولا: بعملية جراحية في حالة الشاذ السالب.

ثانيا: التنويم المغناطيسي.

ثالثا: التحليل النفسي.

رابعا: توجيه رغبات الشاذ إلى الاتجاه الصحيح بإيجاده في وسط تتوفر فيه عوامل هذا التوجيه.

وعلى هذا لن يكون الزواج علاجا حسنا لهذه الحالة ولكن يرى البعض أن يتم الزواج على أن تعلم الزوجة بالشذوذ وربما على مر الأيام يمكن أن يستعيد الزوج طبيعته.

خامسا: ولعل آخر علاج هو استعمال خلاصات بعض الغدد، وهذا لم يتم بعد وضعه في متناول الأطباء، إنما النتائج الأولى تدل على نجاح كبير. ويقول المتحمسون لهذا العلاج أن الشذوذ وراثي إلى حد كبير فلا بد أن سببه يعود إلى نقص في تكون الجسم الداخلي. وأن امتحان التكوين الخارجي للجسم يمكن أن يدل على احتمال لإصابة بهذا الشذوذ لو توفرت الظروف المناسبة.

هذا نوع غريب من الشذوذ الجنسي يميل المريض به إلى التشبه بالجنس الآخر خصوصا في الملابس فضلا عن العادات والآراء، وليس من الضروري أن يكون من "عشاق الجنس".

والترشفزم أو الأيونيزم كما يسميه البعض تبعا للشيفاليه "إيون"

هذا الشيفاليه ذو شخصية أفسح لها التاريخ بعضا من سطوره مات في لندن عن ٨٣ عاما بعد أن أمضى ٤٩ عاما كرجل و ٣٤ كامرأة. وكانت حياته حديث المجتمعات في أيامه. حتى بلغت المراهنات على نوع جنسه يوم وفاته إلى ٢٠٠ ألف جنيها في إنجلترا و ٨٠ ألفا في فرنسا، وكسب الرهان من قالوا أنه رجل إذ ثبت ذلك بالكشف الطبي.

والأيونيزم مرض كثير الانتشار، والذين بهم ميل إلى هذا الشذوذ يخفونه عادة بمهارة حتى أن أقاربهم لا يعلمون شيئا عن ميلهم هذا، وقد تكون حياتهم الجنسية خالية من الانحرافات ولو أن قوتهم ومقدرتهم في هذه الناحية تكون أقل من المتوسط.

وينشأ هذا الشذوذ تحت نفس الظروف التي ينشأ عنها "عشق الجنس" والبعض يؤكد أنه صفة تكتسب في معظم الأحوال وأرى الالتصاق التام بشخصية أحد الوالدين "الأم للبنين والأب للبنات" قد تؤدي إلى خلق هذا الميل. ويقول البعض الآخر بأن سببه داخلي وليس مكتسبا وأنه فقط يقوى ويشتد بتقدم العمر وأن المناسبات المفاجئة تزيده حدة وتبلغه غايته.

ويقسم هيرشفيلد الإيونيزم إلى عدة أنواع.

١- الأيوني الكامل المتحمس الذي يريد تغيير كل مظاهر جنسه.

٢ – الأيوني الجزئي الذي يقنع ببعض الملابس: لبس الجوارب الحريرية والأقمصة والكلسونات الخفيفة في الرجال، أو الملابس الرجالي الخشنة في حالة السيدات.

٣– الأيوني بالاسم الذي يفضل أن يشتهر باسم من الجنس الآخر – جورج صاند مثلا.

٤– الأيوني المستديم الذي يبقى متنكرا طيلة حياته.

٥– الأيوني المؤقت الذي يظهر ميله على فترات.

٦. الأيوني المحب للشواذ من الجنس الآخر الرجل يحب المرأة المسترجلة والمرأة تحب الرجل المخنث.

٧– الأيوني "عاشق جنسه".

٨– الأيوني "عاشق الجنسين".

ويتضح من الحالة الآتية التي لخصها الدكتور هيرشفيلد كيف أن هذا الميل قد يستعبد المريض به.

رودلف (دورا . ر) رجل في الأربعين من عمره. تقلب في كثير من المهن وآخر عمل له كان (طباخا) في أحد مطاعم برلين الكبرى، ولد في (إيرزنبيرج) من والدين صحتهما جيدة وكان له أشقاء كاملو الصحة والجسم والعقل. (هذا إذا كانت بيانات رودلف صحيحة). وحتى العام

السادس من عمره لم تظهر عليه أي ميول مخالفة لمن حوله من الأطفال فكانت له كل نزعات الأطفال كما كان هادئا سهل التربية. ولم يكن يلفت النظر إليه إلا سكونه وتحفظه فكان يلعب، ولم يحدث مطلقا أن ضايق أحدا بلعبه صغيرا كان أم كبيرا، حتى كان اليوم الذي رغب فيه أهله أن يغيروا ملابس البنات التي كان يرتديها "شأن كل ولد في السن الصغير" إذ ثار وقاوم بكل قواه حدوث هذا التغيير مصمما على الاحتفاظ (بفستانه) وبالطبع نجح الوالدان في إرغامه على ارتداء (بدلة) قائلين أن الأطفال الذين تبدو عليهم مظاهر الرجولة يلبسون (بنطلونات).

ومن هذا الوقت بدأ سلوك الطفل يتغير فكان يربط أحيانا بعض أعضائه المميزة لجنسه بخيط راغبا في التخلص منها، وقد أفصح عن ذلك بقوله إن هذه الأعضاء زائدة وليس لها ضرورة وحبذا لو أمكنه التخلص منها، وقد كشفت محاولات كثيرة منه لإتمام هذا الغرض!

وفي الأعوام التالية لوحظ بشكل أوضح أن (الولد) يتكلف ويصطنع حركات البنات، وفي السر كان يرتدى ملابس (أخواته البنات) وكان يجد في هذا لذة وسرورا لا يعادلهما إلا سروره لو ترك يسير متهاديا في هذا النوع من الملابس. ولم يكن في مظهره أي خلاف مع أصدقائه الذين من طبقته، وأتم دراسته بنجاح بعد أن حصل على معلومات عامة طيبة، ثم بدأ العمل في سن السابعة عشر وأظهر مقدرة وسلوك طيبا، كما قدره كل من تعامل معه.

كما أن شذوذه الجنسي نما – الميل المخالطة الذكور – وتضخم ميله لارتداء ملابس السيدات ولذا ترك الحي الذي يسكنه وسكن مدينة كبيرة حيث أمكنه أن يجد حرية تامة للتنفيس عن ميوله، وعاش متنكرا في صورة امرأة في سن ٢٦ إلى ٢٧ وقد ساعده تكوينه الجسماني هذا على التنكر فقد كان جسمه ناعما خاليا من الشعر وأذرعه وأرجله دقيقة التكوين كما أن صدره كان ناميا إلى حد ما فهو من ناحية الشبه بالإناث كان كاملا، ولكن ككل الشواذ كان يشعر بأنه رجل لوجود أعضاء خاصة ولذا ما أن حل عام ١٩٢١ حتى أجرى عملية جراحية (يقصد تعقيمه) وكنتيجة لهذه العملية ضعف ميله الجنسي ولكن شذوذه (عشق الجنس) بقي، كما أن عواطفه ومشاعره لم تتغير، على أن هذا التغيير لم يكن كافيا ليوصله إلى درجة الأنوثة التي يرغبها خصوصا بالنسبة لأعضائه الجنسية.

وأخيرا في عام ١٩٣٠ أمكنه أن ينجح في إجراء عملية إخصاء – تلك العملية التي حاول مرة وهو في السادسة أن يجريها – وبذلك تخلص من أعضائه الزائدة، ومرت ستة أشهر بعد ذلك فكان "التحول إلى أنثى" كاملا بأن عملت له قناة تشبه الموجودة عند الإناث "المهبل"، ونجح بعد ذلك في إنشاء علاقات جنسية مع الرجال حتى تزوج، ولكن لم تنته القصة إلى أقصى ما كان يمكن أن يتمنى فلم "يحمل"، وذلك راجع بالطبع إلى تكوينه الداخلي الذي لا يشبه تكوين الأنثى، وإن كانت تنتابه أحيانا نوبات من القيء كما يبدو على النساء الحوامل في الشهور الأولى من الحمل.

هذه قصة واقعية سجلتها دائرة المعارف الحديثة يتبين منها كيف أن الميل الذي ظهر في الصغر نما على مر الأيام وتقوى وصارت ملابساته أشد عمقا وخطرا حتى وصلت بالمريض إلى الهدف الذي كان يرمي إليه. كان الأولى بوالديه ألا يفرضا عليه تغيير زيه وأن لا يقيما الرغبة التي ظهرت عنده بهذه الشدة، وأن يبحثا عن الأسباب التي حببته في هذا الشذوذ فقد تكون معاملتهم للبنات أفضل من البنين أو أن حديثهم عن مستقبل الأولاد أو حنقه على المستقبل المتعب الذي ينتظره أو أن الأم كانت تعامل الأب بطريقة مهينة شعر الطفل بعدها أن حياة الإناث أفضل من حياة الذكور. أو أن الأب لم يكن متحليا بصفات الرجولة الكاملة التي ترغب أولاده أن يتخذوا منه مثلهم الأعلى، إلى غير ذلك من الاحتمالات، وهذا يوضح خطورة واجب الآباء والأمهات.

وعموما ليس في ارتداء ملابس الجنس الآخر أي خطورة سواء بالنسبة للمريض أو للمحيطين به إلا إذا تعرض هذا الميل لمقاومة عنيفة. وقد تحدث مضايقات من هذا الميل كذلك البحار الذي جند وكان يرتدي في أيام راحته ملابس النساء ثم قبض عليه واتهم الجاسوسية وكان على وشك أن يعدم بالرصاص لولا أن شهد لصالحه الطبيب الذي فحص حالته!

وهذا الميل كثير الانتشار وينتهز المرضى به فرصة حفلات الرقص التنكرية لإرضاء ميولهم والكثيرون منهم لا يحسون في هذا التنكر مزاج جنسي! وآخر حالات لهذا الشذوذ وأحدثها هي حالة الرسام الهولندي

"اينار وجنر" الذي أجريت عليه عملية إخصاء وزرع له محلها مبيضان كما استحدث له مهبل صناعي وتزوج رسميا تحت اسم "ليلى الب" ولسوء الحظ مات من الضعف الذي انتابه أثر العمليات الخطيرة المتوالية. وأخيرا لعل في هذا النوع البسيط من الشذوذ الذي ينتهي إلى هذه الخطورة ما يؤكد دقة موقف المربين وضرورة تزويدهم بالمعلومات الصحيحة.

عشق الذات. النارسيسزم

سمي كذلك نسبة إلى "النارسيس" أحد أبطال الإغريق الخياليين الذي أولع بحب نفسه لما رأى صورته منعكسة على مياه نهر كان يستحم فيه، وهذا الشذوذ معناه وجود جاذبية ذات طابع جنسي بين الشخص وجسمه أو بينه وبين تكوينه العقلي أحيانا، وإلى زمن قريب كانت "العادة الممقوتة" تعتبر نوعا من أنواع عشق الذات (النارسيسزم) والواقع أن بينهما فرقا واضحا. فقد تكون العادة أحد مظاهر النارسيسزم ولكن من الضروري أن يكون مدمنو العادة من النارسيسيين.

فمدمن العادة يلجأ إليها بتأثير عدم وجود شريك بينما النارسيسي لا يشعر بأي حاجة لمن يشاركه عواطفه، كما أنه يرى في جسمه كل ما يرضي رغباته ويرضي نزواته الجنسية، أما مدمن العادة فيجد في نفسه الأداة التي تروي جوعه الجنسي، وأخيرا ليس من الضروري أن يكون (النارسيسي) مدمنا للعادة فهو يكتفي بدليل نفسه، ويمر على أعضائه المختلفة بحنان وحب أو قد يستعرض مفاتن جسمه في المرآة في أوضاع مغرية.

يمر الطفل في حياته الجنسية الأولى بغيرة حب ذاته، ويرى بعض فلاسفة الحب في ذلك أنه غريزة وأن أي حب تجاه أي شخص لا ينشأ إلا عن حب الذات؛ فإعجاب الرجل بنفسه يدفعه إلى البحث عمن يعجب

به، وبالمثل في السيدة فإنها تحب حتى يتوفر لها معجب يرضي غرورها وإعجابها بنفسها، فالحب إذن ليس إلا أنانية غرضها تأكيد قيمة الذات.

وأشد الناس تعرضا للنارسيسزم هم أصحاب الحساسية الزائدة خصوصا النساء ويجد علماء الجنس فيما قاله فالبرا الكاتب الإسباني ما يوضح نفسية الشاذ، ومعظم النساء اللاتي يقدرن جمالهن يجدن لذة كبرى في الإعجاب بمحاسنهن، وتلعب المرآة دورا كبيرا في حياتهن، فإذا تعين من ألبس أجسادهن حرائر جميلة شفافة وجعلن يتفنن في اتخاذ أوضاع مغرية ترضي عيونهن، ولا يطلبن أثناء ذلك وجود من يراهن فلديهن من خيالهن منتهى الكفاية وهن يعتبرن صورهن مصدرا غنيا للمتعة واللذة. وكذلك الصور الفوتوغرافية تعتبر مصدرا آخر لسرورهن فهن يقضين الساعات الطويلة معجبات بما أخذن لهن من صور!. وهناك أخريات لا يقنعن بمثل ما سبق ولكنهن ينهمكن في تحسس أجسامهن بشغف زائد مبعثه حبهن لذواتهن.

والنارسيسية عادة تظهر في أشخاص حبتهم الطبيعة بعطفها، لذلك يكثر هذا الشذوذ في محترفي الغناء والتمثيل إذ يغرهم النجاح والإعجاب وينتهي بهم الأمر بأن يشعروا بذواتهم على أنها أهم موضع لإعجابهم، هذا على الرغم من نجاحهم في العلاقات الجنسية.

والواقع أن النارسيسية في هذه الحال تعتبر فسيولوجية (أي شيء يتعلق بعلم وظائف الأعضاء) وليست جنسية مبعثها رغبة أعضاء الجسم

المختلفة في أن تكون موضع عناية صاحبها حتى يبقى محطا لإعجاب الناس..

وقد يحدث أن يبالغ الرجل النارسيسي في شذوذه فيطغى حبه لذاته على أي حب آخر بحيث لا يجد أي لذة في علاقة زوجية، كذلك الرجل العالمي المشهور الذي ملأت صوره أنحاء العالم في أوضاع مختلفة وحاز إعجاب الجماهير، ومع ذلك لم يكن على علاقة زوجية بأي شخص، وكان يجد كل متعته في انتشار صوره وإعجاب الناس به فقط هذا الرجل هو "رودلف فالنتينو" معبود الجماهير في يوم ما.

وقد يتطور النارسسزم ليصبح نوعا من حب الرؤية إذ يجد الشاذ لذة كبرى في مشاهدة نفسه خلال علاقة زوجية باستعمال مرآة كبيرة، وقد استغلت بعض الجهات هذا الضعف وبنت فنادق حجرها مبطنة بالمرايا، وهذا النوع من الشذوذ ينشأ من المرحلة الجنسية الأولى حيث لا يجد الطفل من يعطف عليه أو من يلاعبه فيركز اهتمامه بنفسه، ومن ثم يعتاد ذلك، وقد ينشأ عن زيادة إفراط الأهل في الاهتمام بالطفل فيجعلون منه دائما مركز تدليلهم لدرجة مبالغ فيها، وبذا يعملون على تركيز ميله في نفسه..

الفهرس